رواية " ٨٨ يوم "

أ/ كريمة حسين

اسم الكتاب : ٨٨يوم

اسم الكاتب : أ/ كريمة حسين

تصميم الغلاف : مي مجدي

المراجع اللغوى: محمد ثابت

رقم الإيداع : ٢٠٢٤/٢٦٥٢١

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٩١-٤١-٩

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

رواية " ٨٨ يوم "

مؤسسة الكاتب العربي

The Writer Operation

و لكن لماذا كنتُ أحيد عن طريقك لئلّا ألتقي بك؟

و أنا التي أودُّ أن أبحث عنك في كل مكان"

"الرافعي"

المقدمة

أخطو بقلمٍ في مذكرتي ولا تترتب كلماتي الحائرة، لكن أريد أن أقول أنَّ لدي كمًا هائلًا من المشاعر المستطابة التي لم أكن أتعرف عليها من قبل، هنا تكون نفسي الجليَّة، وهنا ستُأَلف حروف تعبّر عني وأعبُر بها إلى دنياي الأولى.

الفصل الأول

في طريق عودتي إلى المنزل بعد انتهاء اليوم الجامعي -الضجر-، تلقيتُ مكالمة هاتفية من أمي لأجيب:

- مرحبًا يا أمي.

فأجابتني سائلة:

- أين أنتِ الآن؟
- أنا في طريقي إليكم.
- حسنًا، وأنتِ قادمة اشتري معكرونة وعقاقير الضغط لا تنسي.

أغلقت دون سماع قولي.. محادثاتنا مملة، كذلك ردودي مع الآخرين باردة، يومي تقليدي.. بدون أصدقاء، لا شيء مثير للسعادة أو للريبة في حياتي..

أنا شخصيًّا مملة.

عدة دقائق ونزلت من الحافلة أمام شارعنا الرئيسي ووضعت سماعة الهاتف في أذني أستمع إلى الموسيقى الصاخبة وأدندن معها بخفة أثناء سيري الليّن، ووصلتُ عند العمارة التي أسكنُ بها، وقبل أن أصعد تذكرت طلب أمي لألتف وأعود إلى الشارع الجانبي..

وبعد انتهائي من التبضع توجهت للطريق المؤدي إلى بيتي، لكن ما رأيتهُ جعل من قدمي تثبت فوق الأرض والرجفة سارت في سائر بدني، وشعرت بارتعاش يداي فسقطت الأكياس منّي، حيث كانوا جماعة من الفتيان يتشاجرون في وسط الحي وفتى منهم أخرج من حيث لا أدري سلاح أبيض وكان يشوه به وجه خِصمهُ..

لم يتحمل جسدي المشهد وارتعشت كليًّا وكدتُ أن أصرخ حتى وضعت يد على فمي تمنعني من الصراخ، والذراع الآخر التف حولي ليسحبني بعيدًا عن الشباك.

لم نبتعد كثيرًا حيث اتجهت أنا وذاك الفتى الذي سحبني برفقتهُ داخل فناء عمارة ما، وثبت ظهري على الجدار القديم ومازال واضعًا كفهُ فوق ثغري، وكنت أنظر إليه برهبةٍ كبيرةٍ وصدري يعلو ويهبط بقوة خوفًا منه فصدر منّي أنين مكتوم، واقترب وقال بصوت منخفض:

- سأزيل يدي عنكِ لكن إياكِ والصراخ.. هدئي من روعكِ.. حسنًا!

نظر لي نظرة قلقة وبادلتهُ بحدقةٍ مذعورة.. نبضات قلبي أوشكت على السماع، فأومأتُ له بالإيجاب حتى رفع يدهُ عني ولم تكتمل صرختي إذ وضع يدهُ -مجددًا- يُصمتني، وتلك المرة تحدث هامسًا:

- أعلم أنكِ مصابة بنوبة صرع من الأصوات العالية كالصراخ والعراك وغيره.. اهدئي ولا تخافي منّي.. أعرف تمام المعرفة أن رجائي غريب وحقك أن تخشيني.. لكن أنا لست معهم، وإذا سمع أحدٌ منهم صخبك وأتى صدقيني لن نسلم أنا وأنتِ من بين أيديهم.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا كأنه البارحة.. لم أشعر حينئذٍ إلا بدموعي التي انسابت على وجنتاي وصولًا لكفهُ و ارتعاشي الذي لم يسكُن لثانية واحدة على الأقل، بعدَ يدهُ عني بروية ظنًا منّي الصراخ مرة أخرى، ولكني كنتُ واجمة ومستسلمة لدوامة تخيلات عقلي التي لا ترحم رجفة قلبي.. لا أعلم كم من الوقت مرَّ حتى تكلمتُ بصوتٍ مبحوح:

- من أنتَ؟.. وكيف علمت بشأن نوبتي؟

حكَّ مؤخرة رأسهُ ناظرًا أسفل ثم رفع بصرهُ وقال:

- من يسأل لا يضل.. وأنا أدعى (عُدي) .. (عُدي شمس الدين).

بسط كفهُ ليصافحني ولم أبادلهُ وكنت متعجبة قليلًا، فأنا لم أسمع بهذا الاسم كثيرًا وأيضًا اسمهُ المركب يشير إلى الأسماء العربية الأصيلة النادرة، بالأساس لم أكن في حالة تسمح لي بالتعرف على الآخرين.

هززتُ رأسي وصمتُ لثواني ثم استرسلت:

- لا أعلم ما أقولهُ، ولا شك أنك تعرف اسمي فلا داعٍ لتقديم نفسي، لكن لِمَ وجهك مألوف بالنسبة لي.. هل أعرفك؟
- لا أدري إذ كنتِ تعرفيني أو لا، ولكن نحن جيران على أي حال.. دعيني أوصلكِ، هيا.

سبقني في الخُطى كي ألحق به ولم أسر خلفه، بل حافظتُ على ثباتي حتى ناجيتهُ، وبمجرد تلفظي لاسمهُ سَرت رعشة في دمي:

- **(عُدي)..**

استدار لي منتظرًا تكملة الحديث، فقلتُ:

- ابقى بجانبي.

لِمَ طالبتهُ بهذا؟ لا أعرف، من الممكن لشعوري معه بالطمأنينة من خلال كلماتهُ المُهدئة والتماس الصدق في نبرته، أو لأنه الناجي الوحيد لي في هذا الموقف، أو لأُلفة تعابيره.. أو جميعهم، وابتسم بهدوء ابتسامة عذبة طمأنتني وقال:

- سأرافقك كظلك.

فهو لم يكُن فتيل وميض وسط عتمتي، لقد كان هو النور وجاء لينير عالمي.

ومن هنا بدأت قصتي معه.. مع **(عُدي شمس الدين).**

دق عقرب الساعة على السابعة صباحًا.. انتشلت حقيبتي وغادرت منزلي بخطواتٍ شبه راكضة كي ألحقُ بالحافلة؛ بسبب تأخري اليوم على الجامعة، ومن حُسن حظي عند وصولي إلى المحطة كانت الحافلة متواجدة ومكتظة بالباعة المتجولين والأشخاص.. منهم من ذاهب إلى العمل، ومنهم من ذاهب إلى مدرستهِ، ومنهم من ذاهب إلى الجامعة ربما، ومنهم من يتجه إلى اللا علم لي.

على كُلٍ ولجت بين الزحام وصعدت الحافلة أبحث عن مقعد فارغ، وبالفعل جلست على أول مكان وقع عليه بصري حيث كانت الأريكة شاغرة لفرد واحد، وكان يجلس شخص بجانب النافذة والمقعد الموازي له فارغًا والمقعدان الآخران يشغلهما فردان.. لا بالطبع لن أُحاصر بين الرجال؛ لذلك نظفت حلقي وتحدثت باحترام ممزوج بنعومة للذي يجلس بجانب النافذة وحدهُ وينظر خارجها.. أحاول أن أفوز بعطفهُ دون النظر إليه بكل خجل مزيف، تعلم في زماننا هذا كثر أشباه النساء ولا تجد امرؤ عنده من النبل نصيب

- عفوًا، هل يمكنك الجلوس على هذا المقعد بجانبهم؟.. تعلم أنا فتاة وليس من الصحيِ..

قاطعني بحركته السريعة وجلوسه فوق المقعد الخاوي بلا رد، بالرغم من أنه لبى مطلبي، لكن شعرت بالضيق من تصرفه الوقح نسبيًا، أعني ماذا كان سيحدث له لو ابتسم عنوة على الأقل أو قال حسنًا؟.. لِمَ هو صفيق لهذا الحد؟ يُشعرني وكأني أجبرته على تغيير حيزه، اللعنة عليك في الصباح الباكر معكر صفوي.

جلستُ زافرة ووضعت سماعات الأذن كعادتي أستمع لموسيقاي المفضلة -الصاخبة- ثم أحضرت كُتيب وقلم من حقيبتي أستذكر بعض الملاحظات الهامة، وبعد مدة من تكرار المعلومات في ذهني وتدوينها سقط القلم من يدي متأرجحًا لحذاء -الصفيق- الجالس بجانبي، كدتُ أن أنحني لالتقاط القلم ولكنه سبقني وارتطمت رأسنا معًا.. أتذكر رأسه الصلبة التي جعلتني أجفل للحظة حتى استعدت ثباتي، فرسمت ابتسامة متكلفة وشكرته:

- أشكرك.. أ.. أنتَ!!

كان ذاتهُ الشخص الذي أبعدني عن الشجار قبل أن تأتيني النوبة، فقال:

- كأنكِ.. لا ترغبين رؤيتي؟

حدثني بصيغة السؤال وبقليل من الانزعاج مع تقطيب جبينه، فقلت صراحةً:

- لا، ليس كذلك، ولكنك قفزت في وجهي وأنا فقط لم أتوقع رؤيتك هنا أيضًا.. بعد تلك المدة.. تتذكر!

لا أعلم ما خطب لساني كأنه يؤكد صحة كلامه.. بالأساس أنا لا أكترث لأمره لأنه ليس في فكري، وأخرجني صوته من إسهابي **قائلًا**:

- ألم أقل لكِ؟ أنتِ لا تشتاقين لرؤيتي.

ابتسم ساخرًا وأدار وجهه للجهة الأخرى، فاستشاطت ملامحي وتهكمت نبرتي من ثقته الزائدة هذه **وأردفت:**

- عذرًا من أنت لأشتاق إليك؟ هل بالصدفة أنت (صالح سليم) لأتطلع شوقًا لرؤية وجهك الفاتن أم الوسيم العالمي دون أن أدري؟

تبسم ابتسامة غبية زادت من حنقي وقال بثقة عالية:

- لست (صالح سليم) أو الوسيم العالمي، أنا (عدي شمس الدين).. منقذك.

شعرت بانكماش معدتي وخمول رأسي وضيق تنفسي بعض الشيء، أليست هذه أعراض الحمل!!

فاستكمل حديثه متفاخرًا:

- أتحدث عن الحادث السابق، ولا داع فعلًا لامتداحي والثناء عليّ.
- لم أطلب منك التدخل وإنقاذي، ولم أكن شاكرة لك.

قطعت إطراءه بحدة صوتي وهنا وقفت الحافلة في التوقيت المناسب، ونزلت منها وأنا أنفخ وجنتاي من الداخل وأزفر بكل أنفاسي.. مزاجي سيء للغاية.

كنت أسير في الطريق المختصر المؤدي للجامعة فلمحت ظل خلفي قريب من خطاي، لم أعطي له أهمية كون البعض يسير على ذات الطريق ولكنه حقًا لا يكسر ترجله يمنى أو يسرى.. المسار أصبح شبه خالي وهو يمشي على خط مستقيم خلفي تمامًا، أسمع خطواته المتناسقة مع وتائري.

اهدأ يا قلبي رجاءً وتوقف يا عقلي عن تذكر مشاهد الدراما الجنائية ليس وقتك بتاتًا.. حسنًا سوف ألتف سريعًا أركله في ساقه وأركض.. تشجعي.

كنت أحدث نفسي من شدة خوفي، وفعلت ما أمليته على نفسي حيث لففت له وأصبت باطن فخذه بضربة قوية سريعة ليقع أرضًا متألمًا، وهنا تبدلت ملامحي من مرتعبة إلى مندهشة **وقلت**:

- أنتَ مرة أخرى!!

فأكملت منزعجة وركلته نهاية حديثي:

- لماذا تسير خلفي؟ هل تتبعني؟ تكلم.

أجاب وسط ألمه بينما يلتوي:

- ماذا أتبعك؟!.. أفيقي من أحلامك، أنا أعمل هنا في الشارع الجانبي للجامعة.

****

الفصل الثاني

منذ ذلك اليوم وإذا صح القول آخر موقف حدث بيننا ألقيت عليه الكثير من الاعتذارات في كل مرة أراه بها، وبالرغم من أنه مزعج وأشعل خلايا جسدي في أقل من الثانية بالضجر والغضب، لكن على كل حال كنت أنا المخطئة لذا توجب عليّ الاعتذار منه، وذات يوم بعد انتهاء يومي الجامعي غادرت فورًا فقد اشتقت لسماع الموسيقى الخاصة بي، وكالمعتاد وضعتُ سماعات الأذن وأحرك لساني مع الكلمات بِهمسٍ حتى رأيت فتى عند مقدمة الشارع تحديدًا عند المحطة – من بين الناس - ورفع ذراعه بالكامل ملوحًا لي، فأخفضت صوت مشغل الموسيقى وقلصت حدقتيّ أريد التركيز أكثر هل يعنيني أنا أم شخص آخر؟

أكملت سيري بتركيز مُشتّت بين سماعي لما أحبهُ وبين عيناي المصوبة عليه إلى أن لانت ملامحه إليَّ وتعرفت عليه فورًا حين اقتربت خطواتي منه، إنه جاري الصفيق الوسيم، فقال باسمًا ومصافحًا:

- مرحبًا.

فبادلته التحية بعد أن أوقفت مشغل الموسيقى، **ثم سأل:**

- أين كنتِ؟
- انتهيت للتو من محاضراتي الجامعية.

فأومأ رأسه متفهمًا، وقلت:

- غريب أن نلتقي هُنا مجددًا، صحيح؟

تبسم مضطربًا وقال:

- صدفة.. ولا تنسي أنني أعمل هنا لذا ستكثر الصدف بيننا على الغالب، أما الآن هل أنتِ عائدة إلى المنزل؟
- نعم.

خيّم الصمت بيننا للحظات كنت أستشعر اضطرابه وخجله من تحريكه لقدمه اليسرى باستمرارية، وابتسامته الذي يجاهد لإخفائها كلما وضع كفه على فمه وكأنه يحك ذقنه الملساء، كان يفوقني طولًا قليلًا، وذو جسم ممشوق متناسق ليس ضخمًا ولا مترهلًا، حسن الوجه وبشرة بيضاء، ملامح عادية وعيون بنية غامقة، خُصل قصيرة حالكة تتطاير بنعومة من قبل الهواء، مظهره رجولي ممتزج باللطف.. أتت الحافلة وتوقفت عيناي عن التحديق به.

جلسنا بجانب بعضنا البعض وفتحت النافذة ليداعب الهواء روحي آخذًا بيدي في رحلة إلى الشرود، كنت أفكر في الذي يُجالسني، ظهر لي فجأة، وتقريبًا يعرف عنّي كل شيء، وعَرِفَ ما بداخلي وما أخشاه، أيُجهل عليه معرفة السيرة الذاتية التقليدية!، يبدو وأنه يقتحم أيامي بشكل يَسِر جميل، لكن لماذا؟ لماذا سأل عنّي من غيري؟ ولماذا كان يسير خلفي في ذلك اليوم حتى ولو أصدقَ في قوله بعملهِ هنا؟، يراودني الشعور بأنه كان يتعقبني حقًا، فلماذا؟ والآن أيضًا.. لماذا؟ الكثير من لماذا تشغل عقلي وما من إجابة صريحة.

أنا لستُ من النوع الهادئ داخليًا، تفكيري ينهش خلايا مخي وأحلل الموقف الواحد لآلاف الاحتمالات، فأنا أنتسب لعشيرة المدققين، وحزب المتيقظين لأبسط التفاصيل، وبداءتي تعود إلى قافلة حُنُوّ، وسلفي من طينة المفكرين، وسلالتي من بلدة الإسهاب.. لن أستطيع أن أصمد أمام التساؤلات التي تجتاحني، وأردفت **قائلة**:

- هل كنت تنتظرني عن عمد؟.. أقصد أنك تنتظر إنتهاء محاضراتي لنعود معًا وأشياء من هذا القبيل؟ أم لقائك مجرد صدفة فعلًا؟

سألته بشكٍ ولا أعلم لِمَ ابتسمت تلك الابتسامة الخبيثة التي ارتسمت على وجهي طواعية من شيطاني لأحاصره بين الأسئلة!، فسعل مرارًا واصطبغ وجهه بالحُمرة يكاد يختنق، وما كان منّي إلا أن أربت فوق ظهره أخفف الإحراج عن كاهله، بينما أنا أضغط على وجنتي من الداخل بين أسناني وأكافح لإخفاء ابتسامتي، لكني فشلتُ وضحكتُ بصوت يسمعه هو فحسب واستدرت بوجهي ناحية النافذة، فسمعتُ قهقهته هو الآخر على حاله المكشوف ثم تحمحم لأنظر إليه بابتسامة واسعة:

- أ..أنا فقط..

تعثر في الحروف و اعتقل لسانه عن توضيح الكلمات وهو يعبث في خصلاته الغرابية الأمامية مما زادهُ لطفًا، فقطعتُ توتره بقولي:

- لا عليكَ، فأنا لا أحتاج لتبرير.. لقد وصلني ردك مُنْذُ برهة.

أَهْزَقَ بالضحك لأشاركه بشاشته، ولا أفهم حينها هل كنت أحاول إخراجه من خجله أو أزيده عليه! لكن كل ما أعرفه أنني كنت سعيدة في تلك اللحظة وبوجوده جانبي..

هبطنا من الحافلة أمام محطة شارعنا الرئيسي ولم تتوقف أفواهنا عن الأحاديث المختلفة بصحبة الضحكات، فسألني من بين كلامه:

- هل ستذهبين غدًا إلى الجامعة؟

قطبت حاجباي بغير فهم وقلت:

- غدًا عطلة، لِمَ سأذهب للجامعة؟

فهمهم وقال:

- نعم، تذكرت.

شعرت بإرتباكه مجددًا فقلبت عيناي وابتسمت جانبًا؛ لأنني بالطبع أفهم سبب ارتباكه.. بالتأكيد يستلطفني وإلا لم يكُن يسأل عني مثلما قال سابقًا، ثم طبيعة العمل أن ينتهي بعد منتصف النهار أو في المساء.. أيَّ عمل هذا الذي ينتهي ظهرًا! إنهُ كان في انتظاري قصدًا، أعرفُ هذا، وأيضًا لِمَ هو خجول هكذا! أعني أنا الفتاة ولم أخجل ولو لمرة واحدة بخجل مماثِل لخجله، بالرغم من أنها أول تجربة أمر بها في جراء ما يحدث بيننا ولم أخجل أو تتورد وجنتاي وما إلى ذلك، لكن ارتباكه اليوم يعطيه مظهرًا لطيفًا.

- إذًا متى ستذهبين إلى جامعتك؟

تكلم وفهمت المغزى من سؤاله، إنه يريد أن نلتقي بحجة جامعتي وعمله أو الصدفة مرة ثانية ربما.. لن أريحكَ **"عُدي".**

- مع بداية الأسبوع.
- في أي يوم؟
- لن أخبركَ عن جدولي، اعرفه أنتَ بنفسك أو بطريقتك الخاصة.. أراكَ الأسبوع المقبل، إلى اللقاء.

قُلتُ باسمة ما دار في نفسي وغادرت من أمامه، مع أنني وددت وبشدة أن أخبره عن أيام نزولي وأن أراه كل صباح مرتين، نذهب سويًا ونعود سويًا، نجلس بجانب بعضنا، أشاركه الحديث فيشاركني ضحكاته ومرحه.. أردت أن يحدث كل هذا ولكن لا بأس بالقليل من تعزيز ذاتي، كما أنني لا أعلم عنه شيئًا سوى اسمه وعمله وأنه جاري الصفيق الوسيم، حتى بُقعة منزله تحديدًا لا أعلم أين هي.

تنهدتُ براحة وشعرت بخطواته خلفي على بُعد انشات ضئيلة، فنظرت بطرف عيني حتى أتأكد لأجده هو **"عُدي"..** ابتسمتُ داخليًا وتمنيت أن يطوّل بِنا الطريق، فهو رافقني كظلي دون أن أبلغه.

•••

يا إلهي، أخيرًا!

نطقتُ بها عند وضعي للقلم فوق المكتب بجانب الكتب الدراسية، فأنا منذ أن استيقظت وأنا أدرس لما يقارب الأربع ساعات متواصلة دون فاصل.. تثاءبتُ وقمتُ بتليّن عضلاتي المشدودة مبتعدة عن المقعد واتجهت نحو الشُرفة أفتحها لِينعشني الهواء الرطب، وطاف في ذاكرتي موقف الأمس عندما كان **"عدي"** بِصحبة قلة من أصدقائه يقنطون بذات الحيّ على حد علمي - فأنا لا أختلط بالجيران إلا نادرًا ولا أعرف سوى وجوههم -، كان يقف ليلًا عند المبنى المقابل لمنزلي ويغني بصوتٍ عال ومن يراه سوف يعتقد أنه ثمل لكنه في الحقيقة كان واعيًا تمامًا.

اقتحمتُ النافذة حينما سمعتُ صوته الذي رسخته في ذهني سريعًا وهو يغني بعد منتصف الليل، وابتسمت بوسع على شكله المترنح وصوته المزعج ابتسامة وصلت لأذناي، وبينما كان هو مندمج في الغناء استدار بوجهه ورفع غرابيته على موقعي.. لا أدري لماذا أنا فعلت هذا! ولكن آنذاك تقابلت أعيننا شهقتُ بخفة وأوصدت النافذة على الفور وبقوة مما أصدر صرير إغلاقها وسط سكون الليل.

أحسستُ بدقات قلبي تضرب في صدري وبتدفق الدماء أعلى رأسي..

ما الذي فعلتهُ للتو؟ ماذا بي؟ إنها ليست أول مرة ينظر لي! إذن لماذا تصرفتُ كمراهقة تسترق النظر خلسة؟ أنا فعلت معهُ أكثر من تبادل نظرات، لقد تقابلنا وتحدثنا وضحكنا حتى.. ما الذي ظنهُ عنّي الآن؟ وما رد فعله على حماقتي؟.. جميعها أسئلة دارت في خاطري تُقلقني.

لم أتزحزح من بُقعتي معطية ظهري للنافذة وأقرض أظافري وعقلي يطرح عليّ المزيد من الأسئلة.. أفاقني بقوله المرتفع عن اللازم:

- ياااا... **"حمزة"**، ألا تعلم أن استراق النظر ليس بصفة جيدة!.. على الأقل دعني أختلس معكَ وأبادلك.

صوت قهقهتهم تُيقظ الميت من قبره.. بالتأكيد أنه يقصدني أنا بحديثه ولا يقصد صديقه.. هذا ما قُلته لذاتي وأنا أقفز وأقرع رأسي بقبضة كفي حسرةً على فعلتي، أنا مُشتعلة من الخجل.. كيف سأرى وجههُ هكذا مُجددًا!! وإذا صادفته ما المبرر الذي سأقولهُ؟ ولكن.. هل أخبر صاحبه عنّي!

•••

تنهدت مبتسمة على سذاجة تصرفي وبعثرت خصلاتي حرجًا.. وها هي كُرة الحظ تتأرجح تحت قدمي، فسمعت صوته الذي أصبح مؤخرًا محببًا لي مناديًا:

- أنتِ يا فتاة!

سريعًا أدرت رأسي على اليسار نحوه وقد كان يبصر إليّ وفور أن نظرت له ألقى عينيه على طفلة في المبنى المقابل لي تلهو بدمية فوق إطار النافذة، وصاح:

- اذهبي إلى الداخل حتى لا تسقطين.

جديًا **"عُدي"!** ما أجواء تامر حسني تلك!! كما أن الجيران سيعتقدون أنه بيننا شيء ما بسبب نظراتك نحوي وتصرفاتك هذه! ولكنها تسعدني، بالرغم من إنها طائشة يشعرني وكأننا في المرحلة الثانوية.

رأيته يضحك ويتكلم مع أصدقائه ثم يخطف نظرة سريعة جهتي ويعود إلى حديثه مع الأصدقاء، أعتقد حتى لا يشك به أحد.. كرر فعلته لأقرر أنا الانسحاب إلى الداخل بعد أن أمليت عيناي منه.

ألقيت جسدي على السرير وضممتُ يداي فوق قلبي وأبصرت إلى سقف الغرفة بضع ثواني يتحرك فيها بؤبؤي على كلا الجانبين، حتى رفعت قدمي في الهواء أبرحه ضربًا وأضحك مع أصوات خارجة من فاهي غير مفهومة!

تأكدتُ وقتها أنني بدأت أكن بعض المشاعر تجاه **"عدي"،** فأنا سريعة الوقوع وبالأخص إن كان صيادي وسيم.

****

الفصل الثالث

أغلقتُ باب المنزل ونزلت على الدرج بينما أتطلع إلى ساعة يدي، إنها السابعة إلا خمس دقائق.. جيد سألحق الحافلة دون زحام، الطقس مشمس للغاية ودرجة الحرارة مرتفعة جدًا، أكره الصيف بخاصةً النهار.. الوضع لا يُطاق ولا يُحتمل!

وصلت محطة الحافلات فكان القليل فحسب من الأفراد الواقفين على حافة الانتظار، دقائق مرت ليصبح الوقت السابعة وثماني دقائق وبدأت المحطة تكتظ، خطفت نظرة على المنتظرين أبحث عنه لكنه لم يأتي بعد.. على كُلٍ، لقد تأخر عن ميعاده فمِنَ المحتمل إنه لن يأتي اليوم.

تنهدت بضيق فكنت أتمنى وجوده لكنه ليس هنا، وعدت مرة أخرى أراقب بين الطريق على أمل أن أرى الحافلة وبين الوقت الذي صار السابعة والربع، فقطبتُ حاجباي وعقدت ساعداي فوق معدتي أدبدب بقدمي اليسرى على الأرض وأهز اليمنى.. أجل، فأنا منزعجة بسبب تأخري وعدم تواجده.

زفرت جميع أنفاسي بغيظ أشعر أنني خارج إطار السيطرة على نفسي والعصبية نالت مني، لقد أتت الحافلة ولكني لم أصعدها وتعمدت ألا أفعل، شعور ما بداخلي أخبرني أن أنتظر القليل فقط من الوقت ربما يأتي، وإذا لم يأتي فأنا فعلت ما بوسعي لأجل انتظاره ولن تلعب الوساوس بأفكاري.

أصابع نحيلة طرقت فوق كتفي بخفة فالتفت وأنا أنفخ وجنتاي وما إن رأيته انفكت عقدة جبيني، وابتسم لتهدأ أعصابي.

- صباح الخير.

ألقى تحية الصباح بصوته العذب الذي تخلل مسامعي، ولكن أنا هُنا أريد مَنْ أتكئ عليه أشعر بالتخدر في جميع عظامي.

- كيف حالك؟

يسأل عن حالي!.. أنا ذائبة أمام هذا الملاك، عينيه.. لديه عينان يخطف هدؤهما روحي في كل لقاء.

- لماذا تأخرت؟ أين كنت؟

أجبتُ بسؤالٍ ليس له علاقة بسؤاله، فأنا لا استطيع إخفاء ما يزعجني، فقط أخفيت اضطرابي.

- هل كنتِ تنتظريني عن عمد وأشياء من هذا القبيل؟

تلاعب بحاجبيه وقرب وجهه من وجهي، كما أنه يرُدَ لي ذات سؤالي في اليوم الذي التقيته وأخبرني أنها مجرد صدفة..

أعتقد أن شيطاني تحالف معه ضدي، ابتعدت بوجهي للخلف ونقرت جبهته ليبتعد عنّي وقلت بضجر:

- بحقك **"عدي"!** أنا فقط اعتقدتك لن تأتي.
- اليوم تنتظريني رغم تأخرك وقبل البارحة تختلسين النظر..

همهمَ ليكمل بتلاعب:

- أخبريني بِسرّ تصرفاتك.. ماذا؟

سأل غامزًا ومحركًا رأسه لأحرك رأسي -أيضًا- بمعنى ماذا، واضطرابي يُكاد يفضحني فقال:

- هل وقعتِ لي؟

ما بال تعبيرات وجهه إنه يزيد الأمر سوءًا عليّ وأنا لا إراديًا أؤيد كلامه دون أن ينطق لساني، فها أنا يشتعل كامل وجهي بالحُمرة لأذهب سريعًا ولم أتفوه بكلمة.. لقد ذكرت مُسبقًا أنني لم أخجل أو أي نوع من ذاك الشيء، وبغير سيطرة منّي فعلتُ شيء من هذا القبيل.

صاح بقهقهة وهو يعلم أنني خجلت:

- هل ستذهبين للجامعة سيرًا!!

لم يتلقى منّي رد فحسب أسرعت من خطواتي أُكاد أركض.

- حسنًا، انتظريني.

سمعته بذات نبرته السابقة ثم ركض يلاحقني ليسير بجانبي...

وصلتُ إلى الجامعة وصادفني الحظ اليوم في السماح بالدخول حيث كانت أول خمس عشرة دقيقة لبدء المحاضرة، جمعت أنفاسي بسبب ركضي اليوم ثم أحضرت من الحقيبة اللازم للمحاضرة.

لا أتذكر جيدًا تمام الوقت ولكن أعتقد أنه في الثلث الأخير من وقت الشرح، أصبح **"عُدي"** مؤخرًا يزور عقلي كثيرًا.. تذكرت ما حدث بيننا منذ لقائي الأول به حينما ساعدني على تخطي نوبتي قبل أن تبدأ، ومنها ظني به أنه يلاحقني، كم أنا درامية وأعشق هذا!

ضحكت بخفة على تلك الذكرى لتراودني المواقف التي تليها في يوم عطلة الأسبوع واليوم الذي يليه وذهابنا صباحًا سيرًا، ومواقف أخرى لتتسع ابتسامتي أكثر دون أن أشعر بنفسي حتى أفاقني المحاضر **بقوله**:

- هل محاضرة اليوم مُبهجة! أخبرينا جميعًا ما يُسعدك لنضحك سويًا.

كافة الطلاب وأنا أعنيها ينظرون اتجاهي فأشرت عليّ وحدثته بحماقة وخجل واضح في خدي:

- عفوًا، هل تقصدني أنا!

أومأ بنعم ليأمرني بالطلوع إلى الخارج، هذه أول مرة أطرد بحياتي كلها في إطار التعليم، إنها لإهانة لي، تم طردي بسبب شرودي في **"عدي"..** سحقًا! ولكن هذا ليس ذنبه إنه خطأي أنا على كل حال.

أخذتني قدماي إلى ما يُشبع جوعي ويَملئ بطني وبعد مُدة قصيرة من شراء الطعام والتوجه نحو مكان خاوي من الطلاب، جلست على مقعد خشبي لأتناول طعامي ذو الرائحة الشهية.. فأنا أكره الأماكن المُزدحمة إنها توترني، وإذا كنتُ وحدي وسط تجمع أشعر وكأنَّ كل الأعين مصوبة نحوي وهذا يجعلني لا أشعر بالراحة بتاتًا، لكن جميعها مشاعر كاذبة ناتجة عن تخيلات عقلي المُرهق، فقلبي التالف أبعد الكل عني وأزاد من حولي الخلاء؛ لذا اعتدتُ على كوني وحيدة.
إستكملت تذكري لما حدث بيننا صباح اليوم، كان يحاول إبهاجي ونجح بالفعل، رؤيته وحدها كفيلة بإبهاجي..

•••

عندما وصلنا إلى الطريق المؤدي للجامعة وعمله أحضر دفتر ملاحظات صغير من جيب سرواله وطلب منّي قلم، أطعته وأعطيته القلم ليَدُون حروف لم أستطع أن أراها فسألته عما كتبه لكنه ابتسم ولم يجبني، فكررت استفهامي ولم يجب ولذلك؛ انتشلت الدفتر من يده لأراه كتب اسم اليوم وبجانبه علامة صح.

- ما هذا؟

تذاكيت وسألته باسمة وكأنّي لا أعلم سبب كتابته لليوم، فقال:

- أعثُر على جدولك بطريقتي الخاصة، أليس هذا ما حدثتني به!

قهقهت وأنا أُبعثر شعره لأقول:

- فتى مطيع، استمر على هذا الحال لأسبوع واحد فحسب وستعلمه بالتأكيد.. وأحذِرك ألا تتأخر مُجددًا فأنا لن أنتظرك المرة القادمة.

أومأ عدة مرات وهو يبتسم ومغمض العينين.. يُشعرني إنه طفل، لطيف للغاية.. ربتُ على رأسه وعدلت خصلاته.

هذه أول مرة ألمس شعره أو شعر شاب على وجه العموم لكن رغبة بداخلي أمرتني أن أتحسسه، فأنا في عمق روحي لست بخير خفقات قلبي باتت تزعجني كلما كنت بالقرب منه، أشعر بأطراف أصابعي مجمدة وترتعش ولكني ثبتها فوق خصلاته حتى لا يعلم بأمر ارتباكي.. أحسُ بأن باطني أمامه ضعيفة من مجرد تلامس طفيف، أو لرؤية وجهه وضحكته، أو سماع صوته الهادئ، أو أفعاله الطائشة التي أحبها.

•••

انتهيت من وجبتي ومسحت فمي من بقايا الطعام ثم رفعت رأسي إلى السماء الصافية وأغمضت جفني فشعرت بالهواء الساخن يُداعب وجهي وخصلاتي المُتناثرة على جانبيه، ورأيته يُراقص فؤادي في مخيلتي لأبتَسم وأمرت قلبي بالتريّث أن يَكُن حياديًا كأنهُ ليس منّي، وإن كانت هذه المشاعر لن تختفي إذن عليّ التوقف من الهروب منها.

•••

كنتُ جالسة فوق مضجعي أسنِد على الوسادات وأقرض أظافري، كلما شعرت بالقلق أو الحماس تكون أظافري نتيجة شعوري، أما عيني كانت تُراقب الثواني الأخيرة لِتدُق الساعة السابعة صباحًا، انتفضت من مكاني وهرولت أمام المرآة أرتب خصلاتي المُنسدلة فوق منكباي وارتديت القُبعة وأخفضتها حتى أخفي معالم وجهي.

وضعتُ هاتفي وسلسلة المفاتيح في جيب ملابسي المُريحة وأغلقت باب المنزل خلفي بروية كي لا يعلم أحد من أسرتي بأمر خروجي المثير للشك؛ لأنه ليس لدي جامعة اليوم.

وصلتُ عند محطتنا المُعتادة ولكني وقفت بعيدًا عنها بمسافة ليست قريبة جدًا ولا بعيدة، تحديدًا خلف جدار أمامه المحطة، ترقبتُ كل المتواجدين لكنه لم يصل بعد..

مضَى الكثير من الوقت شعرت فيها بالتخدر في قدمي فأنا أقف ما يقارب الساعة وعما قريب ستصبح الثامنة، أيعقل أن يكون أتى دونَ أن أنتبه! ولكن أنا لم أغفل لثانية واحدة وحفظت ملامح وجه كل شخص كان ينتظر الحافلة لشدة تركيزي لوجوده إذا كان بينهم.. إنه لم يكُن معهم.

متى ستمر عليّ وتهديني بعض السُكون والطمَأنينة وتُنعم لقلبي قليلًا من السعادة ونور أستنيرُ به!

عبست وزفرت بحزن فقررت العودة بما أنَّ وجودي غير كافٍ.. خطواتي الصغيرة لا تعرف الطريق ضالة بدونه لكني أسير، فألقيتُ نظرة أمل أخيرة على المحطة أثناء مشيّ وعندما عدت ببصري أمامي يائسة ظننت وقتئذ أنني خُيلت بطيف يشبهه.. أو طيفه.

شعرتُ بوخزٍ في قلبي إنه يُطالِبني بالالتفات ليرى مستعمره وأنا أجيبه أن يتمهل فلسَّنا حِمل خيبة، وضممت كفاي جهة نبضي وأغمضت جفني وأنا أرجو من الله أن يكون هو، لأمتلئ بالطمأنينة الذي يهديني إياه قربه.

التفتُ ببطء يُعادل بطء السلحفاة وفتحت عين واحدة والأخرى يحتضنها جفني، الرؤية غير واضحة ولكن قلبي يخبرني إنه مُحبه، حررتُ الأخرى -العين- من عناقها وتوسعت حدقتي تراقبه وهو يركض ويقترب من المحطة حيث وقف على إحدى طرفيها ويلهث بشدة، أجل إنه محتل قلبي وعقلي.

غُرته ملتصقة بجبهته، حاجباه منعقدان بشكل يفتر فؤادي، يجوّل بغرابتيه في الموقع وما يحيطه وصدره يعلو ويهبط.. ولكثرة ما نظرتُ إليه بتُّ أحسبه بعضًا من قلبي ومني، ألا يوجد مَنْفذ طوارئ يَلقيني بين ذراعيك؟ أود أن أحلِق لأهبط على كفيك، أريد أن أغطي روحي بروحك وأرسلها لكَ.

أسرعت إلى زاوية الجدار قبل أن تلتقطني عيناه واضعة يدي جهة الجزء الأيسر الصاخب الذي يدق اشتياقًا لرؤيته وارتباكًا في حضوره، تقدمت برأسي من الجانب لأراه ما زال يبحث في المكان.. أنه يبحث عنّي.

فقد أمله في تواجدي بين الحاضرين ليُخرِج من جيب سرواله ذاك الدفتر الصغير ويليه قلم.. هذا قلمي الذي أعطيته له المرة السابقة، أيحتفظ به! ولأني أكِن له حُبًّا وجدتُ في أبسط الأشياء فرحًا وهذا جعل قلبي يقفز بهجةً.

ظل ينظر إلى الدفتر للحظات قبل أن يبتسم بهدوء يشابهه، لا أعرف على ما يبتسم لكن ابتسامته أصابتني بالعدوى.. يبدو أنني لن أتخطى معك لهفة البدايات، يبدو أنني سأحبك بهذا الاندفاع إلى الأبد، هذا ما سيحدث ما دُمت في كل مرة أراكَ تضحك، فقد أميّل نحوك بدون أي مقدمات كغصن رخو هاجمه سِرب عصافير ملون.

****

الفصل الرابع

صباح يوم جديد، دقَّ عقرب الساعة على السابعة لأخذ حقيبة الظهر بسبب امتلاء جدولي اليوم وذلك عكر مزاجي وغادرت المنزل مُحبطة.. يا إلهي! نحن في أواخر فصل الصيف والطقس صهد لا يُحتمل، الشمس تتوهج وأوشكت أن تلمس رؤوسنا وما من نسمة واحدة على الأقل تمردت من نظام الفرن هذا.. الرحمة.

أينقُص تعكيري أجواء كهذه! ما الحظ التعيس هذا!!.. أقبلتُ إلى المحطة وأنا أضع يدي عند جبيني كحاجز من قرص الشمس، وهلةً وتذكرت أمر **"عُدي"** البارحة وابتسمت خفيةً ثم استدرت أبحث عنه.

شعرت بجسدي يُقيم احتفالًا عند اقترابه منّي.. ألا تدرك أن نظرتك نحوي تجعلني أشعر باحتوائك لي، ألا تدرك أن ابتسامتك الفريدة تُضيء العتمة داخلي، ألا تدرك أن وجودك يبعث الطمأنينة إلى روحي.

- صباح الخير.

أقبل بابتسامة مشرقة تنافس إشراق الشمس لأرد له التحيّة:

- صباح الحرارة.

قهقه لردي ثم أمسك طرف ياقة قميصه يهَوّي به فحدقت به بتمعن، أريد أن أماثله لكن لا يمكنني لذا رفعت رأسي للسماء وأغمضت عيني لأبرز شفتي السفلية أخرج أنفاسي مرارًا أنفخ خصلاتي، لكنها ساكنة!

لامس كفه شفتي بضربة خفيفة لأجفل من حركته وأحترقُ خجلًا أكثر من احتراق الشمس.

أبصرت إليه لكنه لم يَكُن ينظر لعيني بل يحدق في نهاية وجهي.. قلبي الوغد أصابهُ الإغماء لا أسمع نبضاته، لابد أن أتحدث ليلقي بنظره بعيدًا عن هذه البقعة.

- أنا فقط.. فعلت هذا طلبًا للهواء.

ابتسمت بحماقة بسبب ارتجاف شعوري ولساني، فأكملت مُغايرة الموقف:

- فكما تعلم قليل من الوقت وستبتلعنا الشمس.

نجحت فعلتي بتشتيت بصره ونظر إليَّ بإنصات ثم ضحكَ وأعاد بصره لذات المكان وهو يردف:

- لا تفعلي هذا مجددًا.

أومأت بهدوء وأنا أريد أن أسأله عن السبب لكن نفضت الفكرة من رأسي وأزحت صاحب القرون عن عقلي.

الحافلة إلى الآن لم تأتي و "عُدي" يقف بجانبي يستعمل يده للتهوية، فشعرت بدغدغة بداية من فروة رأسي إلى نهاية فكي فقطبت حاجبيّ لألمس هذا الشيء وقد كان عرق.

استعملت يدي للتهوية تشابهًا لـ "عدي" وأكاد أذوب من الحرارة، ونظر لي نظرة غير مفسرة وثواني وأتى خلفي لأرمقه بطرف عيني حتى رفع شعري.. أرى العديد من علامات التعجب تحلق حول رأسي!!

رفع شعري عن مؤخرة عنقي لأحس بأنفاسه هُنالك تنعشني وتداعبني، ثم رفع يده يهوّي لأضحك بشدة على حركته.

بعد الكثير من الوقت جاءت الحافلة لنصعد سويًا فأسرعت مهرولة أحجز مقعد ثنائي لنا فضحك أثناء دفعه ثمن ركوبنا.. كنت أجلس بجانب النافذة وأحمل حقيبتي على فخذاي فأحضر دفتره الصغير ليّدون اسم اليوم مع إرفاقه للعلامة الصحيحة، ثم أعاد الدفتر داخل جيبه وقال:

- لو كنت وحدي لجلست مكانك.. أحب الجلوس بجانب النافذة ولا أعلم السبب لكنه شعور جميل، أليس كذلك؟

أومأت إيجابًا بذات ابتسامته وقلت:

- نعم، أوافقك الرأي فقد تشعر بالانتصار لالتحاقك بمكان عظيم كهذا.

هزَّ رأسه على صحة كلامي ونحن نضحك معًا، حدقت في ضحكته التي سببت إنعاشًا لقلبي ولم أدرك أنني أطلت النظر

- هل من شيء على وجهي؟

قالها وهو يعقد جبينه بخفة ويلمس وجهه في فوضى.

- لا لا، لا يوجد شيء.

قلت تعبيرًا بيداي على الرفض وأكملت:

- إنها فقط حـ... حشرة.

شكرًا عقلي، ألم تجد مخرج غير ذلك؟ حشرة! هذا الوجه الملائكي يشوبه حشرة!!

لوّح يده أمام وجهه اعتقادًا في التملص من الحشرة ثم نقر على حقيبتي لجذب انتباهي وبالفعل نظرت له بمعنى 'ماذا' ليلمس أطراف أصابعي و... وهل سيمسك بيدي ونشبكها معًا!!.. لكني هذه المرة انطلقت وراء صاحب القرون لأمد بعيد.

لقد أزاحَ يدي من فوق الحقيبة ليأخذها ويحملها بدلًا عنّي، لِمَ هو نبيل للدرجة التي تجعل من فؤادي يرفرف، يا رجل! أريد أن أخبئك بداخل صدري وأحكم الإغلاق عليك.. مسح على الحقيبة برفق وقال:

- لماذا حقيبتك غير حقيبة كل مرة، كما أنها ثقيلة، ما السبب؟لماذا؟

- لأن جدولي اليوم مفعم وسوف أنتهي منه مساءً.

- مساءً!!.. في أي ساعة سينتهي؟

- في السادسة، الأمر مرهق للغاية ولا أود إكماله لكنه مهم أيضًا.

نبرتي تخللها الملل الظاهر فأبهجني بحديثه **قائلًا**:

- السادسة إلا خمس سأكون في انتظارك عند المحطة ولا تتحركين بدوني، معلوم!
- لكن.. لكن عملك!.. كيف؟
- لا أهتم له بقدر اهتمامي بكِ، أنتِ أهم بالنسبة لي من أي شيء.

لا أستطيع التنفُس، هناك الكثير من الأزهار تنمو برئتاي، فأدركت أن تفاصيل الاهتمام عظيمة، تسعدك دومًا وقد تفوز على الحب.

هبطنا من الحافلة ومشينا جانب بعضنا طوال الطريق حتى وصلنا عند نقطة التقاطع الفاصلة بين الجامعة ومقر عمله، وأخبرني قبل مغادرته ألا أعود بدونه وأنه سيكون في انتظاري ولن يقول وداعًا -*كعادته*- بل قال إلى اللقاء، همهمت له ورحلت بابتسامة ناتجة عن مداعبة حديثه لقلبي.. لو يعلم كم من الفراشات تتراقص حول قلبي بسببه!

بلغت مقصدي وحضرت المحاضرة الأولى لتتوالى المحاضرات وراء بعضها، ولم يمُرّ الوقت إلا و **"عدي"** حاضر في ذهني أينما ذهبت، عقلي مزدحم به وأيسري لم يكُف عن قرع الطبول حين استذكاره.

إنك لا تتيقن ما معنى أن يقفز لي وجهك وسط كل شيء، فوق أي زمان، تحت أي ظرف، في منتصف الطُرق، عند منامي، وسط عائلتي، في الأوقات الصامتة وتلك التي تملؤها الجلبة، إنك لا تعرف تمامًا معنى أن يحمل شخص أحدًا ما بداخله.. إنك بداخلي أينما اتجهت.

وبالرغم من تأكدي أنني أحمل مشاعر لك لكن لا أستطيع أن أحدد ماهيتها.. أهي مشاعر إعجاب، حُبّ، عشق، تَعَوّد، سد خانة، أم أكن جميعهم لك!.. عندما تلاقينا لأول مرّة كل ما أردت أن أقوله هو "مرحبًا! أيمكنك البقاء معي للأبد؟"

لكن أنا حقًا لا أفهمني!.. أنا مُتناقضة ومضطربة، فأنا لستُ معقدة للدرجة التي تُنفر ولستُ واضحة للدرجة التي تُفضح، أنا شخصان لا يلتقيان أبدًا.. إلا أمام عزيز.

ابتُلِعت الشمس وحلَّ المساء وكانت دقائق حاسمة للقائي به.. أراقب ساعة يدي شوقًا لرؤيته أكثر من لهفتي لانتهاء يومي، ثلاث ثواني.. ثانيتين.. ثانية، وأخيرًا أشار العقرب على السادسة مع إعلان انتهاء المحاضرة لأعانق حقيبتي وأركض من بين الطلاب وأكون أول من تُغادر القاعة.

دخلت دورة مياه الجامعة وغسلت وجهي سريعًا ثم جففته وأحضرت من الحقيبة مرطب الشفاه لأضعه في مكانه الأصلي ويليه على وجنتاي، ليُلطف من مظهري ثم غادرت فورًا كي ألتقي به.

•••

اقتربتُ من الشارع الرئيسي التابع للمحطة ورتبت خصلاتي لأملأ عيني به، فلم يخيب ظني فيه إنه يقف واضعًا يديه داخل جيب بنطاله بجانب عمود إنارة المحطة، أدارَ وجهه جهتي فأشحت عيني في اتجاه معاكس كأني لم أراه أو ألاحظه وخطوت برفق وأنا أراقبه بطرف عيني حتى شدَّ بصري بالكامل له عندما اقتربت أكثر.. ما الذي يفعله؟ إنه يختبئ خلف جذع الشجرة الكبير!!.. قليلًا وابتسمت حينما فهمت سبب اختباءه، حسنًا **"عدي"** لنلعب.

وقفت بجوار الشجرة من الناحية الأخرى ولكن للخلف على بُعد خطوتين، فبصرت في المكان المقابل له أمسح البقعة وكأني أبحث عنه، ونظرت للأرض بحزن وهمهمت بيأس أوصل له صوتي وعدت أدراجي حتى وقفت خلف الشجرة أنا أيضًا، وحينئذ أحسست بقرون تنبُت من رأسي مع ابتسامتي الخبيثة.. سمعت حركة قدمه وشعرت به يلتف لألتف خلفه كالظل.

لم يجدني في الطريق الذي من المفترض أن أكون قد عُدت فيه ليستدير إلى الجهة الثانية، فيراني في وجهه وأنا أرفع كفاي وأقول:

- هههووووو.

فصدر منه صوتًا مرتعبًا مع ملامحه التي أصابها الأدرينالين ورجع إلى الوراء مما جعلني أجثو على ركبتاي ضحكًا.

ما زال يقف مصدومًا وكفه على صدره ووجهه اصطبغ بلون الفراولة، وإنما رأيته على بساطته يفوق كل جمال معقد، وجمال كل معقد، وتعقيد كل جميل.. إنه جميل بشكل

معقد، اعتدلت وضربت ذراعه بخفة وأنا أحاول تمالك **ضحكتي**:

- أزفر أنفاسك **"عدي".**

أكان بانتظار من يخبره بذلك! حيث زفر قويًا ونظر ساخطًا:

- ماذا إن أصبت برعبة قلبية بسبب مزاحك؟ ستكونين سعيدة حينها!

رفعت أصبعي السبابة في وجهه وقلت بجدية:

- أولًا، لا يوجد ما يسمى برعبة قلبية إما نوبة قلبية أو ذبحة صدرية.. هذا ما أعرفه.

وتابعت بتلاعب حاجباي وابتسامة انتصار:

- ثانيًا، أنتَ من بدأ فتحمل عواقبك يا عزيزي.

قلص عينيه وقضم شفته ليعكف يديه خلف ظهره، وتمتم بعد أن أصدر همهمة:

- هكذا إذاً.

شعرت بالغدر من كلامه لأعود بظهري إلى الخلف، فتقدم منّي كاسرًا الخطوات التي خطوتها حتى ضحكت بصوتٍ عال، واستدرت امامي أركض بصراخ بسيط وهو يتبعني.

في ذلك الوقت أظنُ أننا جذبنا الأنظار نحونا من ركضنا خلف بعض وصراخي وضحكاته، ولثقل الحقيبة التي أعاقت من سرعتي قبض عليها يوقفني فارتددتُ فيه ولحسن حظي أن الحقيبة كانت فاصل بيننا وإلا كنت فقدت الوعي بين ذراعيه.

نظرت ببراءة له ورفعت كتفيّ لتسقط الحقيبة ويتشبث هو بها، وركضت مرة أخرى بحماس وسعادة ولم أكمل الدقيقة وقد أمسكني ثانيةً من ياقة سُترتي، وتلك التارة هو من نظر منتصرًا فأخذت نفسي وأردفت:

- حسنًا لقد تعبت.. وبالنسبة للحقيبة أحملها أنتَ.

ألقى الحقيبة ناحيتي لألتقطها سريعًا وقال خلال سيره وهو يسبقني:

- لست خادمك، وبسبب سلوكك اليوم سنعود مشيًا لا حافلة.
- **"عُدي"..**

همهم كإجابة فقلت:

- ابقَ بجانبي.

- التف وابتسم بهدوء:
- سأرافقك كظلك.

وعلى الرغم من إرهاقي لكني سعيدة بالمضي معك لوقت أطول، فأنارت لي السُبل المعتمة بنور قلبك العفيف وجعلت لي حياة أحبها.. ففي الصّباح أنتَ والشمس والسماء، وفي اللّيل أنتَ والقمر والنجوم، وفي كل وقتٍ أنتَ والأمل والبريق.

****

الفصل الخامس

ولجتُ منزلي وبدلت ثيابي إلى أخرى مريحة ولأرتمي فوق فراشي فهو ملجأي وأنيسي، وحده من يتقبلني بشتات أفكاري وتقلبات مزاجي وسوء حالاتي وإن كانت منها اللحظات السعيدة، وحده من يسمعني دون مقابل ويحتضنني بلا أن أطلب منه ولا يَكِل منّي، وحده من يتقبلني كما أنا مهما كان ما بقلبي.. احتضنت وسادتي الصغيرة وطاف على بالي "عُدي" ومعه أحداث اليوم.

وكلَّما استدعيته ذهنيًّا تسبقني ابتسامتي فعليًّا.. أنا أحبه، لكن ما أتعجب منه ومن نَفسي كيف بتلك السرعة؟ بين عشية وضحاها وقعتُ أسيرة لضحكته.

التزعْزُع هو كل ما أشعر به، أخاف من صَحوْي لاحقًا بأنه لم يكن حبًّا وإنما كان توهمًا خطأه أنا.. أخاف أن يَمِل أحدنا الآخر، أخشى الملل.. وأخاف من فقدانه و-أخشى- فقدان روحي معه بلا رجعة.

محت ابتسامتي ومهجتي واكفهرَّ وجهي، لِمَ أفكر فيما يزعجني وأعكر لحظاتي الحُلوة!.. وما إن فكرتُ في ذلك ريثما جاء حديث **"عُدي"** في مسمعي يتردد صداه "لا أهتم له بقدر اهتمامي بكِ، أنتِ أهم بالنسبة لي من أي شيء"، توسعت بسمتي ورفستُ الملاءة لأخبئ وجهي في الوسادة التي اعتصرتها بسبب المزيج من المشاعر التي أشعر بها.

مضَت الدقائق كنت فيها متأهبة للنوم وانسدل جفنيّ رويةً رويةً، فسمعتُ ضجة داخل الشرفة وتجهمت وأنا أنصت للتأكد مما أسمعه.. دُهمت على حين غَرّة في الوقت الذي وجدت فيه باب الشرفة يُفتح!

استقمت معه وقلبي يدق خوفًا وتمسكت بوسادتي قويًا، مدَّ ساقه داخل أرضية الغرفة ومن ثم جسده ليظهر بعدها وجهه المُسلط عليه ضوء القمر..

إنه عزيزي.

- **"عُدي"!!** ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت؟ ألم أكن معكَ منذ ساعات قليلة وكيف دخلت من الشرفة؟

انهلت عليه بالأسئلة ليقترب منّي ويجلس على حافة السرير بجواري وثغره يرسم ابتسامته المحببة إلى قلبي، ثم حركَ أنامله فوق الملحفة بهدوء ليضعها على كفي، فنظرت إلى أيدينا معًا وتليها عيناه الناعسة التي كانت تحتوي على بريق خالِص هذه الليلة.. تبسمتُ بوسع ليتكلم بهدوئه الذي أعهدهُ:

- جئتُ لأجلكِ فلم أكتفي منكِ.. اشتقت لكِ.

دفعني برفق لأتسطح فوق الوسادة وانضم إليَّ حاشرًا جسده بين يداي، فضممته أقوى وأنا أُقبِل فروة رأسه.

●●●

أزعج قُبلاتي صوت يعلو شيئًا فشيء.. فتحت عينًا واحدة ورأيت الوسادة في عناقي كما غفلت، ولكن لا أثر لـ **"عُدي"** هنا! فأغلقت المنبه وهرعت أبحث عنه في أرجاء الحجرة ولا وجود له، والشرفة موصدة من ليلة أمس.

جلست على الفراش وفركت رأسي ودمدمت:

- يا له من حُلم!.. اعتقدته واقعي.

استعديتُ لذهابي الجامعة، وبعد مرور الوقت في غضون الثلاثين دقيقة كنت قد انتهيت وغادرت المنزل بعقلٍ شارد في سؤال واحد وهو..

"هل ينتظرني فيجمعنا لقاء آخر؟" فتذكرت يوم عطلتي حينما أتى مُتأخرًا ولم يجدني، ماذا إن لعب بنا القدر وانقلبت الأدوار ذاك الحين؟..

انزعجت من الفكرة وأسرعت متمنية لقاءه.

بلغت المحطة وجلست على مقاعد الانتظار فلم تكن المحطة مزدحمة وحسب القليل، وما زال الوقت باكرًا على وصوله ووصول الحافلة؛ لذلك أخرجت سماعات الهاتف واستمعت إلى قائمتي المفضلة -التي ابتعدت عنها لفترة- حتى يمضي الوقت.

وبالفعل مرَّ دون أن أشعر -لانغماسي في عالم آخر بواسطة الموسيقى- إلا عندما وجدته يجلس بجواري ويمسك دفتره الصغير وقلمي، أزلت سماعة من زوج السماعات وتحدثت متفاجئة:

- منذ متى وأنتَ هنا؟
- تليق بكِ الفساتين كثيرًا.. ولم يمُرّ على وجودي سوى دقائق معدودة.

فتبسمت خجلًا ليأخذ السماعة التي كانت في يدي ويضعها في أذنه قائلًا:

- إلى ما تستمعين؟... همم أحبها جدًا تلك المقطوعة من الغنوة.

ظلَّ يُردِد المقطع مع استماعه ويحرك أنامله في الهواء مع اللحن، فضحكت عليه وعلى ما يفعله ليبتسم ويأمرني بيده أن ألحن وأطرب معه، وفعلت المثل ونحن نتقاسم الموسيقى.

أتمنى أن يتوقف بنا الزمان عند هذه اللحظة، وأن أتجنب كثافة العالم لأحظى بازدحامك أنتَ..

هيهات! فقد جاءت الحافلة لنستقيم معًا وصعدنا، كانت كافة المقاعد الثنائية ممتلئة فجلست على مقعد فردي وجلس "عُدي" فوق المقعد الأمامي لمقعدي.

استقرت الموسيقى في أذني وحدقت في مظهره الخلفي وشعره المصفف بخصلاته التي أصبحت أطول قليلًا عما سبق.. أحب شكل رأسه.

عكس وجهته مقابلًا إيّاي وطَوْق مسند المقعد محتضنه واتكأ على ذراعيه ليحيطني ببصره، تبسمت بعفة ودحرجت عيني بينه وبين الطريق تكرارًا وهو فقط راسخ على هيئته لا يُبعد عينيه من فوقي لثانية واحدة.

ارتبكتُ جدًا واكتملت عليّ حين تذكرت المنام فتلونت وشعرت بالدماء تتجمع في وجنتيّ، وقبل أن يتلفظ بحرف أو يسأل عن حالي أزحت سماعة من أذني وثبتها في أذنه قائلة:

- شاركني الموسيقى ريثما ننهي طريقنا.

لانت معالمه وبيْد أنه اندمج مرة أخرى مع الألحان، أما أنا فشردت في فُتنته المغمضة وباقِ تفاصيله الجذابة.. أنا من أولئك الذين يذوبون حين يحبوا.

•••

أتت وجهتنا لتنتهي الموسيقى عند هذا الحد ونغادر الحافلة، كان الصمت يتوسط خطواتنا ولا أدرك ماذا يحدث بيننا لكن السكون خيّم الطريق، ولاحظ "عُدي" الأمر محاولًا تلطيف الأجواء بهمهمة وتحريك ذراعه الأيسر الذي يحتضن كفه جيبه، فنظرت إليه **وتكلمت متعجبة:**

- ماذا؟!

أجابني بتحريك ذراعه مرة أخرى وهو يبتسم ففهمتُ مقصده وضحكت بقليل من التورد، وتأبطت ذراعه ليمسك كفي ويشده حول ذراعه أكثر، واستمر بوضع كفه فوق كفي المنقبض يمسح عليه برفق فقلَّ توتري تدريجيًا وارتخت قبضتي، ويردف هو مستفهمًا:

- متى ستنتهينَ اليوم؟

فقلتُ:

- أنتَ متى سوف تنتهي من عملك؟
- سينتهي عملي عندما تنتهين أنتِ وتجديني في انتظارك هُنا.. عند المحطة.

فأجبت بابتسامتي التي لا تفارقني في حضوره وعيني التي تتبع تفاصيله:

- سأنتهي اليوم مبكرًا عن البارحة.. حوالي في الرابعة بعد منتصف النهار.
- حسنًا، سأكون في انتظارك.
- كما تريد، ولكن يا **"عدي"** أليس هذا خطرًا على دوامك؟ أقصد أنَّ كافة الشركات هنا تنتهي في الليل كما هو معروف، وأنتَ تغادر مع مواعيدي.. لن يعود تسكعك معي بالنفع عليك.

تنهد مُفكرًا وأطلق غمغمة طويلة وقال:

- لن أنكر، الأمر بالطبع فيه خطورة على فصلي أو يُحتمل أنني لن أقبض راتب هذا الشهر على الأغلب لعدم مواظبتي.

قهقه ثم تابع بهدوئه بعد أن رسم بسمة بسيطة:

- لكن كما أخبرتك سابقًا وسأخبرك مجددًا إلى أن تُعلق في ذهنك.. أنتِ أهم بالنسبة لي من أي شيء، أنتِ أهم من العمل، وأهم من راتبي، وأهم من كل تلك الترهات.. يُمكنني تعويض جميعهم ربما لاحقًا حتى ولو صادف في دوام آخر، لكن لا يُمكنني تعويض لقاءنا صباحًا ورؤية وجهك بشكل يومي، لا يُمكنني تعويضك.. أتريني أحمق لتفويت فرصة ذهبية كهذه!

هدوئك.. على وثاق هدوئك أطمئن وأرى في ملامحك هدوء عميق يجعلني أؤمن بأنَّ كل ما بهذا العالم من خراب ما هو إلا اختِلاق، وجميع الدروب مستوية، والنهايات دائمًا مبهرة، وأن كل شيء في وجودك جميلًا، وأنَّ النجوم هي من تُعد الناس ليلًا بينما جميعنا ينام بسلام، لي في هدوئك حياة.

ارتخيتُ تمامًا وشعرت بروحي تُنعم بعد كلماته وعينيّ تُهيم في وضاءة ملامحه التي خلدتها في ذاكرتي، ونطقت بلا تفكير فحسب ما جال بخاطري:

- لماذا؟.. لماذا تهتم بي إلى هذا المدى الذي يجعلك على شَفا الهاوية دون الاكتراث لشيء عداي أنا!.. لماذا.

توردت وجنته توردًا طفيفًا وابتسم، ثم قال خلال سيره وهو يجذبني مُجددًا إلى ذراعه بوتائر أسرع عن لينا في الخطى:

- سأخبرك لاحقًا، فلم يشأ الوقت بعد.
- رغم أنكَ لم تشبع فضولي لكني سأنتظر أن تخبرني؛ لأني أرى بكَ الطمأنينة كما لو أنكَ المكان المناسب لروحي يا **"عدي".**

حدثته بصدق عما داخلي فلا داعِ لإخفاء الأمر أكثر أو إطالته، هو بالفعل واضح من تصرفاتنا تجاه بعضنا.. لستُ فتاة حمقاء تؤمن بالصداقة بين الذكر والأنثى وخاصةً أن ما يحدث بيننا لا يمد للصداقة بصلة.

أخذ يدي التي تأبط ذراعه ليغلفها بكفه الذي لائمني.. نخطو باتزان وابتسامة أقسمت ألا تفارق فاهنا ما دُمنا سويًا.

•••

دلفت إلى الجامعة اللعينة مفرقة بيني وبين **"عُدي"..** أكرهُهَا، وفي ذات الآن أحبها وأعتبرها مُبجَّلة لأنها تجمعني به يوميًّا.

دخلت قاعة المحاضرات وحضرت جميعها بحماس لم أعهده من وقت ذهابي إلى الملاهي في الصِغر.. سندت رأسي على معصمي الموضوع فوق بنش المدرج وقد يُخيل إليك أنني على وشك أن أغفو، لكني كنت في أوج تركيزي أثناء شرح المُحاضر، وأيضًا لم تغب عنّي لقطة تلاحم يدينا معًا وحديثه المرفرف لقلبي.

أشحتُ ببصري في الصفوف الأولية لأجد.. **"عُدي"!!** هناك خطأ بالتأكيد! فركتُ عيني وتوسعت بؤبؤيّ فرأيت أنه شبيه **"عُدي"،** زفرت براحة لأعود بنظري جهة المُحاضر.. لكن لِمَ كل الحضور أصبحوا فجأة **"عُدي"!!!**

لماذا أراك في كل الوجود وكل الحاضرين آثرتَ عيني أم أثرتك الأماكن واحتفظت بك!

لا أقدر على إكمال المُتبقي من المحاضرة بهذا الوضع لذلك جمعت أشيائي في حقيبتي وخرجت من القاعة إلى دورة المياه، فتحت الصنبور وغسلت وجهي مرارًا لعلي أفيق من توهمي به.

واستندت على حواف الحوض ونظرت إلى انعكاسي في المرآة.. لا أعرف هل من إفاضة تفكيري فيه أراه في الجميع!، أم لأنها آخر محاضرة ونفدت فيها طاقتي ونقص معدل تركيزي!، أو ربما لمجرد لمسه ليدي وامساكها أصابني ذلك برؤيته في جُلّ الوجوه!

مسحت بخفة على كفي الذي كان بين أحضان أنامله صباحًا وتذكرت ما حدث -مرة أخرى- لأبتسم ببلاهة ولا أعطي أهمية لمن حولي وهن ينظرن في تعجب من أمري.

توسعت ابتسامتي حتى أنني ضحكتُ بصوتٍ منخفض لأخفي وجهي بين يداي، ثم أرسل لي عقلي تنبيه بأن اليوم آخر يوم في الأسبوع الخاص بالدراسة، أي لن أراه ليومين الإجازة.. يجب أن أستغل الباقي من الساعات معه لأطول وقت ممكن، فبت أحب وجوده.

****

الفصل السادس

وطئت قدمي خارج الجامعة متجهة نحو المحطة والتي صارت نقطة إلتقاءنا، فالآن الساعة الرابعة وخمس دقائق، أشعر بدقاتي المرتبكة تزعجني لكنه ألم محبب لي.. تنهدت بارتياح حين وصولي ولم أجده وهذا في صالحي لأجل ضبط أنفاسي ومنظري المتوتر.

قمت بعملية شهيق وزفير مرارًا وتكرارًا إلى أن شعرت بالسكينة داخلي، ونظرت إلى ساعة يدي التي كانت تشير للرابعة وأربع عشرة دقيقة، رفعتُ رأسي والتقطته عيني يقترب نحوي، فأندلعت الحرب مجددًا في جوف فؤادي.

- تأخرت عليكِ؟

ما دامت تلك العيون تحتضنني فأهلًا بعودة السلام والهدوء.

- لا، ليس كثيرًا ولكن لماذا تأخرت؟

قهقه ثم حكَّ مقدمة أنفه وقال مستفهمًا:

- ألم تقولي أنني لم أتأخر أم أخطأت في السمع؟

بادلته الضحك وأجبته بنبرة منخفضة عن سابقتها:

- حسنًا لنعترف أنك تأخرت.. والآن أخبرني لماذا تأخرت لربع ساعة؟

- أنتِ تحسبينَ لي الوقت أيضًا، إذن دعكِ من اعترافنا بتأخري ولنركز في اعترافك بأنك اشتقت إليّ، صحيح؟
- بماذا تتفوه أنتَ! اشتاق إليك ماذا وكيف وأنا أراكَ كل صّباح ولّيل أيها النرجسي!

ضحك على رد فعلي السريع والمندفع، وقال:

- على رسلك يا فتاة ولا تغضبي هكذا.. لقد جرحتِ قلبي بكلماتك القاسية هذه.
- لا تمثل يا "عُدي"، أنتَ فاشل بالتمثيل.
- كما ترين.. هل سنعود إلى ديارنا إذًا؟
- لا، لا أريد بتاتًا الآن خصوصًا أن غدًا إجازة ولا مجال للخروج، لذلك دعنا نتنزه اليوم.. القليل من الوقت فحسب.

رميت بإجابتي تلقائيًا وصراحةً فنحن لن نلتقي غدًا وأريد إمضاء الوقت برفقته أكثر، فرمقني بنظرة متقلصة يملأها الشك وابتسامة جانبية.. لم أفهم تعابيره التي جعلت من التوعك بمعدتي يزداد واضطرابي ارتفع.

•••

- أنا جائعة، جائعة، جائعة.. آهٍ جائعة جدًا.
- ما الذي بيدي وأنا سأفعله! في طريقنا إلى المطعم انتظري القليل، صبرًا.

كنا نتبادل التذمر بيننا لشدة جوعي واستيائه من إلحاحي، أجل أنا جائعة لكن ليست لتلك الدرجة.. فقط أحببت إغاظته وإغضابه لأرى به وجهًا جديدًا أجهله لا أكثر من ذلك.

وصلنا عند إشارة المرور حيث كانت مفتوحة ولسوء الحظ بمجرد أن قدمت أقدامنا على أهبة الاستعداد للعبور، تبدلت الإشارة إلى اللون الأحمر **فنظر لي متمتمًا:**

- نحس.

تأففت بضجر أثناء ثني ذراعاي مُغمغمة بلعن حظي، فقال:

- الصبر يا إلهي!

نطقها بعلو جالبًا الأنظار نحونا لأعقد حاجبي بغير فهم حتى انفكت عقدتي وارتفعت دهشةً حينما قبض على رأسي وغرز أصابعه في فروة شعري، يسحبني بجواره لنعبر الطريق المزدحم بالسيارات:

- ما.. ماذا تفعل! أجننت.. سنموت!!
- أطربيني بصمتك وسنعبر سالمينِ.

صوت الزامور وبوق السيارات التي توقفت خلال مرورنا جعلت كل من أصحاب العربات، ومن ينتظرون أو يمرون يُسبوننا بسبب غباءه.

نجينا بأمان بعد التصرف الطائش ومشينا على الطريق الآخر **لأهجم عليه بالكثير من اللّوم والتذمر:**

- ما الذي فعلته هذا؟ ها.. جعلتنا محط أنظار الناس وعرض للسب واللعن، افترض.. افترض إذ كنا تعرضنا لحادث أودى بنا! وبالأساس من سمح لكَ أن تمسكني بهذه الطريقة و...
- أنتِ بشحمك ولحمك.. سالمة.

شعرتُ بالضيق منه وقلت:

- لِمَ أنتَ بارد في ردك هكذا!.. يديك داخل جيبك ولا تنظر إليّ وأنا أحدثك، فلتعلم أنني أكره تلك الحركة أنتَ لا تبالي بكلامي، وحسب تنظر أمامكَ وكأنك لم تفعل شيء الآن...

لم أكمل حينما التف ذراعه حول رقبتي يجذبني جهة صدره، وهبوطه إلى جانب وجهي يُحدثني بنبرة تشبه الهمس مختلطة بالحدة:

- أنا عِندي ألم في الرأس ومن الأفضل لكِ أن تسكُتي قبل أن أفعل ما لا يُعجبك أقسم.

وددتُ بشدة أن أجادله عند نقطة فعل ما لا يعجبني، كيف؟ هل يهددني مثلًا أم يتهيأ لي!.. لكن دنوه منّي وقربي منه لدرجة التصاق نصفي العلوي بجانبه وهمسه لم يُساعداني.. فَشُلَّ لساني وشُق عقلي إلى نصفين، شعرتُ وكأني خارج إطار العالم ونجح حقًا في إسكاتي.

دخلنا المطعم ليسألني عما أريد تناوله فأخبرته بالشعرية وقطع الدجاج المقلية ومشروب بارد، فقلدَ طريقتي وأنا أصيح بجوعي ساخرًا منّي ولم أكترث له.. وفي غضون دقائق كانت رائحة الطعام الزكية تسبق الطعام نفسه قبل أن ينزل على المضيرة أمامنا، وقد طلب **"عُدي"** مثلي.

شرعنا في نهم الطعام وكان ساخنًا جدًا وحارًا لأحس بأن جوف فمي ولساني احترقا، فكان **"عُدي"** ينفخ في الشعرية قبل أن يأكُلها على عكسي أنا التي كنت أتناول بشراهة غير مهتمة بتورم فمي.. رؤيته خلال تناوله جعلتني ابتسم من لطافته وهو غير مدرك أنني هائمة في تفاصيله.

أخرجت هاتفي من حقيبة اليد وفتحت الكاميرا وصوبتها ناحيته ولكن على بُعد بسيط وهو يأكل، وإلى الآن لم ينتبه لما أفعله وعندما وضع الطعام داخل فمه ناديته لينظر إليّ فألتقط الصورة سريعًا..

حيث كان يشبه الجرو اللطيف بجبينه المرفوع وعيناه البراقة، وضمه لفمه مع امتلاء وجنتاه بالطعام.

ضحكت ضحكة رقيقة على هيئته ليبتلع ما بجوفه وطلب أن أريه الصورة:

أريني ماذا صورتِ.

فخشيت أن يحذفها لذلك أطلعته عليها عن بعد، فضحك هو الآخر على شكله وسألني أن أرسلها له.. كيف أرسلها إليه وأنا لا أملك رقمه أو بريده أو أيّ شيء يخصه يجعلنا نتواصل معًا!

وكان قد فهم ما دار في فكري وانتشل الهاتف من يدي لدقيقة وكان أعاده لي، فتفحصته ورأيت أنه قام بحفظ رقمه دون أن يدون له اسم، وأرسل الصورة في رسالة نصية إليه.

•••

صباح يوم جديد مشرق بهواء نديّ وعلى غير العادة فنحن في فصل الصيف وكان المناخ مثالي اليوم.. شُرفتي مفتوحة والهواء يعبر من خلالها يُنقي غرفتي وأنا كنت أجلس في مكتبي ألقي نظرة سريعة نحو ملخص الفصل، نظرًا لقرب موعد الإختبارات النهائية.

سمعتُ صوت إشعار رسالة من هاتفي المُلقى على مضجعي، لم أكترث له في البداية اعتقادًا في أنها رسالة من شركة الاتصالات.. مضى ما يُقارب النصف ساعة وتلقيت إشعارًا جديدًا، دقيقة ووصل إشعارٌ آخر، فتركت قلمي ونظرت إلى الهاتف في تعجب من أمر إشعاراته التي لم أعهدها.

استقمت من مجلسي ومسكت الهاتف وإذا به رقم مجهول! فتحتُ المحادثة لأرى صورة **"عُدي"** التي أرسلها لذاته من هاتفي مسبقًا ورسائل اليوم يَقُل فيهم تحية الصباح، وأخرى يسأل عن حالي، والأخيرة يستفهم عن وجودي.

شقت الابتسامة ثغري وتوردت وجنتيّ، يدي ترتعش بخفة ولا أعلم بمَ أجيبه!.. قرأتُ الرسائل مرة أخرى بتمعن لأقرر الرد عليه بعدما مرت هنيهة

"صباح الخير.. أنا بخير وفي غرفتي أدرس، ماذا عنك؟"

لم يجتاز الدقيقة وكان قرأها وأرسل:

"تحت منزلكِ.. طُلي من الشرفة لأراكِ وأكن بخير حينها".

جميع أعضاء جسدي تنبض بصخب وقلبي يخفق بقوة.. هي مجرد رسالة وصلت إلى هاتفي ليس لقلبي، لماذا كل هذا الإرتباك!!

****

الفصل السابع

أبصرت في المرآة ورتبت شعري وهيئتي وأخذت نفسٍ عميق ودلفت الشرفة، مسحت الشارع بحثًا عنه لكني لم أراه، فمسكت الهاتف وراسلتهُ:

"أنا في الشرفة، أين أنتَ؟"

"أمامكِ".

بعدتُ الهاتف عن عيني وبحثت مرة أخرى لكنه ليس أمامي ولم يكن هنا من الأساس، فتنهدت مجددًا ومسدت صدغي ثم فتحت المحادثة وأرسلت له:

" أنا لا أراكَ، أين أنتَ بالحق؟"

فأرسل:

" لا يهم، يكفي أنني أراكِ".

حالي! لست بخير البتة.. ماذا يعني بيكفي أنه يراني!، ما الذي يقصده؟ أهذا يعني أنه فعلًا متوق لرؤيتي! هل يفكر فيّ معظم الوقت كحالي واشتاقَ ليتطلع إلى وجهي؟

غفلت عن وجوده لوهلة وشردت وأنا أفكر في كثير من الاحتمالات المنعشة إلى قلبي وعقلي، وعيني لا تتزحزح عن رسالته التي كانت تتردد داخل طيات ذهني مُتخيلةً صوته يقولها.. فوضعت ظافر إبهامي بين شفتاي وتشع ابتسامتي من فرط سعادتي، حتى أنني نسيت أن أجيب على رسالته فحسب سكنت أمام المحادثة.

"لديكِ ابتسامة جميلة جدًا تُشبهك".

توسعت ابتسامتي أكثر وضحكت بصوت، إنه يهدهد روحي.

"حسنًا، أظهر أيها المتغزل".

قرأها ولم يرد.. أبعدت الهاتف عن عيني ووجهي يتحرك على الجانبين إلى أن ظهر أمامي من فناء العمارة المقابلة لمنزلي، ورفع كفه ليس علانيةً ولوحَ بعلامة التحية، إبتسمت في وجهه ورفعت كفي أيضًا أردها إليه سريعًا وأنزلت يدي وأنا أضحك بإبتهاج.

على ماذا أضحك!.. لا أعلم، فحسب روحي من تبتسم حينما يتعلق الأمر به، ضحك هو الآخر وبعثر شعره من الخلف ثم خطى مبتعدًا من أمامي، تابعته ريثما اختفى عن مرمى بصري لأدخل أنا الأخرى إلى غرفتي.

•••

قضيتُ العطلة بين المحادثات النصية وبين المكالمات الهاتفية والقليل فقط من التطلع إلى بعضنا من خلال الشرفة، وبالأخص بعد تبادل أرقامنا شعرت بالتقرب يزداد جهتنا ومعاملتنا لبعض الآن ليست كأول مرة بالتأكيد.

أتعامل معه بأريحية تامة وكأني أعرفه منذ مئات السنوات لا لبعض الأيام.. انتهى يومان العطلة وبدأ أسبوع جديد وكما الحال معنا نذهب سويًا ونعود سويًا، واليوم الذي لا أذهب فيه الجامعة أراقبه عن بُعد فأصبحت عادة لدي.

توالت الأيام ومرت الأسابيع وشغفي ناحيته يكبر يوم بعد يوم، روحي.. روحي متعلقة بروحه حتى أنني في كثير من الأحيان أشعر به يبادلني ذات المشاعر فلا هي في إطار الصداقة أو لأننا جيران، شعور أعظم من ذلك.. أما عن اليوم، فاليوم أتممت الشهر برفقته.. أجل نحن معًا منذ شهر، لم يبعد لحظة عن عقلي في الستين دقيقة من الثلاثين يومًا بل ويتربع على عرش تاموري.. كل يوم أحبه بشعور جديد.

كنت أجلس على فراشي وبين يدي مجلد دراسيًا وقلمًا يتأرجح بين أصبعي السبابة والوسطى فاختباراتي ستُشرف صبيحة الغد، ودون سابق إنذار أوقفت حركة القلم ورفعت مقلتي عن الكتاب.. أشعُر بنسمة تهبُ على قلبي، لابد أنهُ يبتسم الآن فتحسّستُ نبضاتي التي خفقت فجأةً ثم ابتسمت وكتبت اسمه على الصفحة التي أدرسها.

أضاءت شاشة الهاتف فأمسكته فورًا لأرى رسالة من (بسمة روحي)، أجل هو بسمة روحي، وروح فؤادي، وفؤاد قلبي.. هو باختصار عالَمي وحدي .. فتحت المحادثة وقرأت رسالته التي جعلت من منسوب دمائي يضُخ قويًّا

"أعلم أنكِ مستيقظة ولا أريد إشغالك، فحسب شعرتُ أنه يجب أن أخبرك بشعوري..".

قفزت من مكاني فورًا أقرضُ ظافر إصبعي الإبهام وأحدق في هاتفي بمزيج من المشاعر.. أشعر بالفرح؛ لأنه من المتوقع أن يعترف لي بحبه.. وأشعر بالخوف؛ لأنه من المحتمل أن يعترف بصداقتنا فقط ليس كما خُيّل لي.. وأشعر بالقلق؛ لأنه من الممكن أن يعترف بشيء عكس توقعاتي من الأساس.

فأرسل رسالة مجددًا يقُل فيها:

"أنا أثق بكِ ومن تجاوزك الاختبار وستتخرجين بتقدير مرتفع..
تذكري كلامي"

بالرغم من احتمالي الأخير الذي كان في محله، لكن هل أخبرتكَ أنك مصدر الطمأنينة والطاقة الإيجابية!! أود تناول الكتاب الآن حرف حرف وأرسخ الهوامش حتى في ذاكرتي.

فقررتُ أن أجيب رسالته وأرسلتْ:

"وأنا أيضًا أثق في كلامك ولن أخيب ثقتك بي".

"وأنا أثق في ثقتكِ بي".

إنه يُزهر محيّاي عند كل رسالة.. أغلقت المحادثة وألقيت بالهاتف جانبًا ثم عُدت للدراسة مرة أخرى.

ومرت ثلاث ساعات دون أن أبعد الكتاب أو أتحرك من موضعي، إنه وقت الفجر فتركت الكتب ووقفت أُلين جسدي ثم ذهبت لأجل إحضار الكوب الثاني من القهوة.. مسكت هاتفي وفتحت المحادثة لأرى أنه كان متصل منذ وقت قريب، أيعقل أنه لم ينام إلى وقتنا هذا؟

قررت أن أشبع فضولي من ذاك السؤال وأرسل له رسالة نصية:

"مُستيقظ؟"

ثواني! بالطبع.. فهو لم يتأخر وكان بلغني رده:

"أجل".

"ولمَ؟"

"من أجلك.. أحب أن نفعل ذات الشيء معًا".

●●●

بعد تجهزي بالكامل استعدادًا للخروج ألقيت نظرة على الوقت وقد كان السابعة وخمس دقائق، مسكت كوب القهوة الثالث وتجرعته سريعًا أتمتم بدعوات التوفيق والتسهيل، فحملت حقيبتي وباليد الأخرى أخذت الكتاب والهاتف والمُفتاح.. وبعد أن تخطيت عتبة المنزل رنَّ هاتفي باسم مُحبي.

إرتسمت البهجة على وجهي وأجبته من أول رنين ليخبرني أنه للتو قد وصل المحطة وفي انتظاري، فأخبرته أنا أيضًا بقدومي وفور إغلاقي المكالمة الهاتفية معه تنهدت بسبب عذوبة صوته وضجة مشاعري تجاهه.

وعند اقترابي من المحطة مترقبة طيفه، وقفت أدلك كفيّ معًا مع زفرات متعددة إلى أن طبطبتُ على قلبي عسى أن يهدأ.. ما زلت أتذكر تلك اللحظة التي ألتقيتك فيها وكأنها حدثت الأمس، وصارت الحياة أكثر جمالًا حينئذ بقدومك إلى أرض بور فنبتت ببذور حنانك وعطفك وألقيت عليها محبتك.

منذ ظهورك وكل شيء حولي يضوي لمعانًا.. زادت الطمأنينة بك يا أنيس قلبي، وأصبحت الابتسامة أكثر اتساعًا عما مضى، أصبح النهار متلألئ والليل أكثر سكونًا وأنتَ نقي وأنا لا أفقد بريقي كلما كُنا سويًا.

وضعت آلاف الشعور ورممت أجزائي الهشة، كان كل شيء متضارب ومتفاوت فخرج من جوف حلكة فؤادي بصيص من الأمل ينبض باسمك، وكان شعورًا لم أشعر به من قبل، كان سببه أنتَ ومنبعه قلبي.. كان قدومكَ أشبه بيوم العيد وأتى معه كل شيء يسرني وكان سرمديًا.. هناك أناس عابرون على مر الزمان وهناك أنتَ، أنتَ الخالد في قلبي إلى المنتهى.

****

الفصل الثامن

أقبلتُ إليه بصخب قلبٍ يُسابق سرعة السيارات، وارتجاف كفين يُنافس النفحات، وخطوات مُتلهفة لوعة تفوق عداد الزمان.. صافحني بهدوئه الذي يهدئ من خافقي وسألني:

- كيف حالك؟
- بخير، ماذا عنك؟
- جيد.. مستعدة؟

أومأت له مطمئنة إياه وران الصمت بيننا في انتظار الحافلة.. انكسفت أشعة الشمس مُختبئة بين أحضان السحاب خجلًا من بدري المُنير، واهتدت النسمات في احتدامها بالساكن كسكون اللّيل.. والصباح يصبح خيرًا بوجوده الدائم فيه.

أتت الحافلة بعد وهلة من الانتظار لكنها كانت اليوم مزدحمة بشكل لا يُصدق ولم نصل إلى أي من المقاعد، جميعها ممتلئة.. تشبثنا في المقبض المُعلق فوق رؤوسنا أثناء انطلاقنا، فسمعته يحدثني:

- أخبرتني سابقًا أن اختبارك في التاسعة صحيح؟

رفعت نظري عن الكتاب ونظرت إليه فكان قريبًا بطريقة بعثرتني كُليًّا، أدرك تمامًا أنه لم يقصد التقرب منّي بتلك المسافة المبالغة، هو فقط بسبب الاكتظاظ.. وأنا حقًا شاكرة لذلك الازدحام.

- أجل، وسأنتهي في الظهيرة.

همهمَ وقال:

- ما رأيك خلال الساعة الباقية بدخولك الاختبار أن نحتسي القهوة ونفطر لتفعمي بالطاقة وتُبلينَ بلاءً حسنًا؟
- كلا، لن يحدث و...

قاطع تفوهي توقف الحافلة عند محطة ما جعلت من ثباتي يتأرجح، بملامح متفاجئة أعتلتني وشهقة خفيفة غادرت فاهي، التفَ ذراع **"عُدي"** حولي ومحيطًا كتفي بقوة قبل أن أسقط وأصير أضحوكة بين الركاب، فنظرت له بذهول ورأيت معالمه القلقة ريثما دفعني برفق إلى الأمام واعتدلت في وقفتي.

ابتسم ابتسامة أزالت القلق الذي داهمني ثم انحنى ووجهه جانب وجهي ومع كل اقتراب يقتربه منّي يرتفع معدل الدماء مشكلًا كُرتيّ في خدايّ وأعلى أذنيّ، فخرجت أنفاسه الهامسة تضرب في احمراري ساخرًا:

- أرأيتِ ما كان سيحدث لكِ نتيجة عنادك واعتراضكِ على اقتراحي.. إنها إشارة لتوافقي.

●●●

- أصغي إليّ **"عُدي"**، أنا لا أريد الإفطار خاصةً أنني لا أتناول الطعام قبل الاختبارات بسبب القلق والتوتر، كما ولابد ألا تتأخر عن عملك.. سيُخصم من راتبك إن تبقى به أساسًا وسوف تزيد ساعات عملك، وأيضًا أريد أن أراجع في هذا الوقت قبل أن أدخل للاختبار.

أخبرته بما أريده خلال سيرنا في المسار فوجه سوداويته نحوي متلفظًا:

- حسنًا لن أجبركِ، لكن على الأقل دعينا نحتسي القهوة.

حركت رأسي بالموافقة لننعطف ممر آخر ودخلنا مقهى فجلست أنا بينما هو ذهب لشراء القهوة.. لم يتأخر كثيرًا وقد أتى بالطلب.

كنا نجلس على طاولة بالجوار من الزجاج يطل على الطريق.. الطقس لطيف اليوم به لفحات باردة والشمس مشرقة، ويصدر في المكان موسيقى هادئة وعيناه.. بينما يوجد أناس حول طاولة خلفه وأخرى في المنتصف أما الثالثة فكانت قبال باب الاستقبال، ولم يكن المكان ممتلئ كعادته.

فرقع **"عُدي"** أصبعيه معًا وجذب انتباهي بأحاديثه لأبادله أثناء احتسائي للقهوة وجميعها كانت أحاديث ليست بالشيء المهم، حتى طوق أصابعه حول الفنجان ونظر إليه شاردًا، كنت سأسأله عما يدور في خاطره لكنه سبقني وسلا:

- **هل وجودي في حياتك يُزعجكِ؟**

لا أعلم ما خطبه ليستعلم عن هذا الشيء لكن من المحتمل أنه يعاني من اضطرابات قلبه وعقله، مثلي تمامًا.. على يقين أن كلانا عالق في ذهن الآخر، كلانا ينتظر الآخر بطريقة ما.

كنت سأرضيه بإجابة صادقة نابعة من قلبي ولكن ما صار بثَّ الرعب في نفسي وأرجف اوصالي، تسارعت نبضات قلبي خوفًا أما عيني فبقيت مُرصدة على وجهه قط.

الطاولة الخلفية لـ **"عُدي"** كان يجتمع عليها مجموعة من الفتيان ودون سابق إنذار علا ضجيجهم وحدث إشتباك بينهم.. أنا أعاني من رهاب الضوضاء والشجار والصراخ وما شابه، فالأمر لازمني منذ الصغر حوالي وأنا في الثامنة من عمري واستمر على مدار خمسة عشر عامًا بغير التوصل إلى حل أو علاج، ليس لأنها أزمة نفسية نادرة الانتشار أو هذا.. لم يهتم أحد لأمري فحسب كبرت وكبر معي الخوف.

لم أنسَ رجفة يدي التي أتعبتني إلى الآن وأنا أدون من موقعي هذا كافة ذكرياتي الخاصة به ومعه.. في ذلك اليوم لم أستطع أن أسيطر على خوفي الذي طغى على بدني وملامحي، فجمع بين سرعة حركته في وضع كفه على ظهر كفي، وبين هدوئه في مسحه عليه -كفي- لإرسال سكينة قلبه لقلبي.. كان يتفوه بكلامٍ لم أقدر على سماعه ولا حتى على سماع الشجار كأنني انعزلت عن العالم الخارجي وحصرت بين معالمه.

لا أدرك كم من الوقت حولي مضى لتعود الأجواء كسابقها إلا أنا لم أتغير، حدقتي مصوبة عليه ولم تغفل أو ترمش.. وبدأت الأصوات من حولي ترجع بالتدريج إلى أن تسلل صوته الحنون ونبرته القلقة مسامعي:

- هل أنتِ بخير؟

حاولت أن أخرج صوتي لكن عقدة لساني لم تنفك بعد، لذلك اكتفيت بالإيماءة له أخبره أنني بخير، ثم تابع وقال:

- هل تودين مغادرة المكان؟

لا أقدر على الرد ما زال الخوف يربط كلامي.. وعندما طال صمتي تحدث متعجبًا:

- لماذا تبصرين إليَّ بتلك الطريقة؟

فرقت شفاهي وأطلقت حمحمة مصحوبة ببحة خفيفة، وأجبته بنظري المعلق عليهِ:

- أدرِس وجهكَ؛ لينمحي خوفي ويطمئن قلبي.

●●●

دخلت قاعة الاختبارات وجلست أفتح كتابي لأبدأ في مراجعة الأساسيات الهامة من المادة، فتضارب عقلي بين صورة الشِجار وصورة "**عُدي**" اللذين اتعبا قلبي.. زفرت نفسًا مرتعشًا من استمرار ارتجاف أطراف أصابعي اليسرى، أحتاج إلى رؤيته لعلي أهدأ.

أتى موعد الاختبار وشرعت في حل الأسئلة وكنت أتماسك بكل قوتي ريثما انتهي منه، ومضت الساعة والنصف إلى أن سلمت ورقة الاختبار وغادرت سريعًا لمكاني المنعزل عن البشر "في الجامعة".

رميت حقيبتي أرضًا وألقيت جسدي على الزرع بجانبها أجهش في البكاء مستخدمة كفاي كقناع مانع من رؤية دموعي، رغم أنه لن يراني أحد.. آثار الرهبة ما زالت تنبض في جوفي.. أشعر بالخوف الشديد ولا أقوى على الحراك.

أنا فقط كنت صامدة أمامه؛ لأنه معي ويطمئنني، لا أشعر بالقلق؛ لأنه مأمني، ولا أخشى شيء؛ لأنه درعي وحمايتي.. أما أنا الآن بدونه عُدت ضعيفة وهشة كسابق عهدي.. أزحت يدي عن وجهي ومسحت بأطراف سترتي دموعي لأمسك هاتفي مقررة مهاتفته.

بارتجاف وأعين ضبابية ضغطت على اسمه ليعطيني رنين.. *لم يتم الرد..* هذا ما توصلت إليه لأشعر بالخيبة وأبدأ في البكاء مُجددًا، لكنه لم يمهلني الفرصة لذلك ليُنير هاتفي باسمه.. أجبت فورًا دون أن أتكلم فقال:

- "مرحبًا!"
- شهقاتي التي تعالت هي من ردت عليه، فأصغيت إلى نبرته القلقة:
- "ما بكِ؟"
- **"عُدي"**.. أنا لست بخير"
- "لا تبكِ.. دقائق وسأكون أمام بوابة الجامعة.. كل شيء سيكون على ما يُرام، حسنًا!"
- "أنتظرك لأكون في أحسنِ حال".

****

الفصل التاسع

أنهيت المُكالمة وأنا على حالي أمسك بالهاتف وأنا شاردة فيما حدث صباحًا وفيما حدث سابقًا من أمور أخافتني كثيرًا ولم أتجاوزها بعد.. انتُشِلت من دوامة الذكريات السيئة بصوت رنين الهاتف لألاحظ أنني كنت أبكي بصمت، فمسحت تلك الدمعات وحمحمت كي يخرج صوتي سليم على الأقل مُجيبةً عليه:

- "أنا بالخارج في انتظارك".
- "آتية".

أغلقت المكالمة وأخذت حقيبتي في طريقي إليه، أشعر بانتفاخ جفنيّ والحرقة داخل عيني تأكُلني كي تذرف سائلها لكني كنت وطيدة، وبخطى بطيئة بلغت أمامه على مقربة منه وما إن رأيته حتى شعرت برغبة في البكاء.. كان يتفحصني بملامح منزعجة لتغير شكلي الواضح عن الساعات التي مضت صباحًا.

لمعت عيني ببريقها المنكسر و إرتعش قلبي إلى أن وقفت قُباله.. لا أدري أكان لشعوري بالأمان يعود مرة أخرى عند رؤيته، أم لعدم تخطي ذاكرتي ما حدث! لكن كل ما فعلته هو جذبه من قميصه لأرخي رأسي على صدره بما فيها من تشتت وتعب وآلام وبدأت نوبتي في البكاء **بصوتٍ مكتوم:**

- عانقني.. أرجوك.

لا أدري بما كانت توحي تعابيره حينئذ لكن مؤكد أنه تفاجأ من طلبي، فلم يصغي إلى أمري إلا بعد مُدة قصيرة.. أحسستُ بيده تربت على ظهري فتشبثت به أكثر وأزداد نحبي، وسند ذقنه أعلى رأسي قائلًا بحنو:

- لا بأس أبكي حتى تشعُري بالتحسن.. أنا معكِ.

كلماته تحتضن روحي وتلامس أعماقها وجعلتني أريد أن أختبئ داخل قلبه، فمسح بليّنٍ على شعري إلى أن سكنت أنفاسي.

بعد أن قام بتهدئتي من خلال مسحه على رأسي ابتعدت بروية عنه ولم أسمح لعيني بالنظر إليه، أنا خجلة جدًا مما فعلته أتمنى أن تنشق بي الأرض.. وإذا أبصرت إلى عيناه سأبكي ثانيةً من فرط الخجل، لذلك أخذتْ خطواتي في المشي محاولة تناسي ما بدرَ منّي فسار هو الآخر بجواري على هُدى واطئتي، ولامست أطراف أنامله باطن كفي.. ورغم خجلي الشديد لم أبتعد عنه بل قربت مسافة يدينا معًا لتلتحم في لَمّ شملها.

ظلَّ يمسح فوقها برفق إلى أن رفع وجهي من طأطأته.. حدقته الغُرابية تُهلكني كلما نظرت داخلها، وسلا:

- أنتِ بخير الآن؟

أومأت له وعدتُ إلى خفض وجهي ليجذبه مجددًا أثناء ابتسامته في الحديث:

- لا تهزين رأسك، أريد سماع صوتك.

فابتسمت ببعض التورد وقُلت:

- نعم، بفضلك أصبحت بخير.. ولكن في نَفسي يكمُن سؤال يشعرني بالفضول.
- أي سؤال؟
- في الصباح.. لماذا سألتني إن كنتَ تزعجني، هل تراني أنزعج منك أو من تواجدك حولي؟
- سألتكِ لأنني أحيانًا أراني مُتطفل بشأنك، أو بمعنى آخر تعمقت في حياتك واقتحمتها على حين غَرّة وأنتِ كُنتِ لا تعلمين هويتي وعلاقتنا تزداد بشكل ألاحظه.. فأخشى أن يزعجك هذا القرب أو لا تشعرين بالراحة معي.

إبتسمت عندما أدركت أن حالنا يُشبه بعض فهو يذكرني بذاتي في بداية معرفتي به، كنت مضطربة هكذا لكن لكل منا شكل من اضطرابه، فأجبت بكل حب ومصداقية:

- لا يمكن لوجودك أن يكون محض الصدفة أو لقاء عابر، أشعر دائمًا أنك مُرسل إليّ ليكون كل شيء على ما يُرام.

توهجت عيناه ببريق كالنجوم المُشعة وسط عُمق حلكة السماء، فابتسمت ابتسامة واسعة بعد هذه النظرة وأشحت ببصري عنه، ثم تفوهت وأنا أأرجح يده بين كفيّ:

- أتعلم أنَّ اليوم أتممنا الشهر منذ أن ألتقينا ببعض.
- حقًا!!

قالها مُندهشًا لأومئ له بزم شفتاي، فأزاح أيدينا المتشابكة للجانب وبيده الحرة تلمس وجنتي ناظرًا بعمق داخل عيني التي جحظت وانبثقت الدماء في كامل جسدي حينما **قال بوَجْس:**

- إذن اطلبِ ما تشائين والجنيّ خاصتك سيُنفذ ما تمليه عليه مالكته.

شعرت بالكثير والكثير من المشاعر التي أربكتني كسرب من الفراشات يداهم قلبي مصاحبًا دغدغة خفيفة، والخملان الذي أصاب عيناي وارتفاع حرارة وجنتيّ، ولكن بغض النظر عن تلك المشاعر الجميلة أحسست ببؤبؤيّ يدوران مما يجعلني حَولاء!! لذا رمشت عدة مرات وأنا أبتعد ببطء مع ابتلاع مائي إلى أن تنفست براحة عند عبور الهواء بيننا.

نظفت حلقي ونظرت له مترددة ثم تكلمت خلال التفاف رأس اصبعيّ الإبهام حول بعضهما:

- في الحقيقة أريد أن أسافر.

شمخ صدره برأسه وأدخل كفيه بجيبه **مستفهمًا**:

- إلى أين؟

زممتُ شفتاي ورفعت منكباي دلالة على جهلي للمكان ريثما أجبته:

- لا أعلم، واطمئن ليس لخارج البلاد.. فحسب أحتاج أرض خضراء ورؤية البحار.. وجهات كتلك.
- هذه المالديف وليست وجهات عادية.

فقلت متذمرة:

- لا تسخر من أمنياتي.

همهم بإماءة وقال:

- حين تنتهين من اختباراتك سوف أحقق لك ما تتمنيه، وعدًا.

ابتهجت كثيرًا حتى برز شقيّ خدي أثر ابتسامتي، ورددتُ:

- أتمنى أن تنتهي الآن.

ضحك بتلك الابتسامة البشوشة وصوتها الخطير على من ينبض بقوة أيسري.. أملتُ رأسي قليلًا أتمعن في قمري باسم الثغر، إنه دائمًا يجعل من قلبي ينقبض وينبسط بأصغر حركة يفعلها أو كلمة يصرح بها، وحينما تتحس نظراتي وجهه الجميل تنتحب أناملي حسرةً.

●●●

أغلقت باب المنزل خلفي فور دخولي واتجهت نحو غرفتي مباشرة وباشرت بتغيير ثيابي ثم رفعت شعري ولففته بإحدى خصلاته، تربعت فوق فراشي العزيز وأمامي الكتاب الخاص بمادة اختبار اليوم وراجعت العديد من الأسئلة حتى غفيت سهوةً.

مضت الساعات وأقبل الليل وأنا لازلت نائمة ولولا رنين هاتفي لكنت تابعت نومي للغد، لم أقوَ على فتح عيني لكن ملامحي انكمشت أثر هذا الازعاج فتلمست الفراش جانبي وصولًا إلى الهاتف لكني لم أصل بعد.

أبعدت الوسادة الصغيرة عن وجهي واستقمت بجزئي العلوي فدلكت صدغي وفركت عيني عسى أن أفيق، فكان صوت الرنين انتهى لأنظر على الناحيتين ولم أجده.. ارتميت فوق الوسادة مرة أخرى متأهبة للنوم حتى صدح طنين المزعج خاصتي، فتأففت ونهضت بضجر أبحث عنه إلى أن وجدته داخل الصفح، مسكته لأرى المتصل وقد كان (بسمة روحي).. نمَت بسمة على شفاي وشعرت بضربات خافقي البسيطة، حمحمت أثناء تدليكي لعنقي **وأجبت اتصاله:**

"مرحبًا".

"هل أيقظتك من نومك؟"

"كيف علمت!"

لم أكن استعدت تركيزي بعد لذلك تفاجأت وبحثت بعيني في أركان الغرفة عن شبحه، فسمعت صوت ضحكته قائلًا:

"رباه!! أنتِ خارقة الفطنة.. بالتأكيد علمت من صوتك".

"أه، صحيح..".

أجبت بنوع من الإحراج وضحكة خفيفة على غباوتي.

"أتعلمين..".

"ماذا؟"

"اشتقتُ إليكِ".

توردت خجلًا وضغطت على شفتي السفلية أمنع صوت ضحكتي من الظهور، ما يحدث لقلبي من دلال كثير أن يتحمله، فقلت بعد أن استعدت رباط جأشي:

"أنتَ حقًا مُبتذل، لقد كنت معكَ في الصباح إذن متى اشتقت لي، ها!"

ضحك ثم قال بلكنة لعوبة:

"أفهم من كلامكِ أنكِ لم تشتاقي إلي مثلما أفعل أنا؟"

"لا، على الإطلاق".

سمعت تنهيدته وتلفظ بنبرة مصطنعة:

"حسنًا، أنا أمُر تحت بيتكِ وبما أنكِ لا تشتاقين لي فلا داعِ من وجودي".

"أنتظر، أنتظر.. لقد دخلت الشُرفة أين أنتَ؟"

عند سماعي قوله دلفت الشرفة فورًا؛ لأنني أتوق إليه في كل لحظة ودائمًا.. لكن كل ما قابلني منه هو الصمت عدة ثوان حتى ضحك قويًا، فاستفهمت:

"على ماذا تضحك؟"

"يا إلهي! ما حال شعرك!!.. أشعة الشمس أشرقت ليلًا".

حسنًا.. لقد وضعته في القائمة السوداء للمكالمات.

****

الفصل العاشر

مرَّ يومان الفاصل بين الاختبارات قضيتهما في دراستي وبالطبع لم يخلو اليوم من وجوده فيه.. الطقس اليوم بارد إلى حد ما وتوجد به لفحات تُقشعر البدن وتحمل معها رائحة الشتاء.. إنه الخريف، الوجه الثاني من الربيع الذي يجدد الروح والحيّاة بعد ذبولها.

كعادتي دومًا في تلك الأيام أنهيت قهوتي وأخذت حقيبتي بما يلازمها من ورق وأقلام وغادرت المنزل، ثم مسكت هاتفي وأجريت اتصال مع **"عُدي"** أبشره عن قدومي ليخبرني بقدومه هو الآخر.. وصل قبلي ورأيته يقف في انتظاري لألوح له بابتسامة ويردها لي.

- صباح الخير.. الهواء بارد قليلًا اليوم.

صافحته وأنا أتلمس كفه الدافئ نسبيًا مقارنةً بكفي، فقال:

- أجل، أرى ذلك في ملمسك.
- لم أكن على علم بالبرودة هذه فجأة فمن الأفضل أن نذهب اليوم قدمًا.

ابتسمت في بداية حديثي ثم أحطت معصمي بذراعه وسندت رأسي عليه -ذراعه- أحثه على طاعة رغبتي، فخبئت يدي المحاطة به داخل أطراف كم ملبسي واليد الأخرى أدخلتها في جراب الحقيبة.

شعرت به يطالعني بطرف عينه وابتسم ابتسامة جانبية ثم التقط أصابعي – المعلقة على معصمه- بين أصابعه وجعلهما متشابكين في باطن جيب سترته.. الدفء لم ينْتابَ كفي فحسب وإنما غَنِمَ وجداني ومَلَكَ روحي..

إن أسقطت ثلجًا فهو شمسي الدافئة، وإن أمطرت سيلًا فهو مظلتي الحامية، وإن اشتدَّ لفيح الريح فهو موقدي ومَأوِيَة.

- **"عُدي".**

همهم خلال سيرنا ولم يوجه نظره بالكامل نحوي فتابعت:

- أتمنى أن أرقُص.

مالَ رأسه بغير فهم واستيعاب ورفع إحدى حاجبيه بينما تفوه باسمًا بسمة خفيفة:

- حقًا؟
- حقًا.
- حقًا حقًا!!
- أجل.. حقًا حقًا.

تضاحكنا معًا ليضم كفه الآخر عند ثغره محمحمًا وبدت نبرته أكثر جدية:

- أخبريني.. ماذا أيضًا؟
- همم.. أريد أن أرقص برفقتك.. تحت الغيوم.. دونَ موسيقى.. نتمايل فقط على قرع هذين.

أشرت جهة قلبي أولًا ثم نقرت فوق قلبه ووجدته ينبض قويًّا، فأزحت يدي من يده ووضعتها كافتها على منبعه الصاخب.. أبصرت لسوداويته لأراها تتلألأ ارتباكًا وأعلى أذنيه يشوبه احمرارًا.. لا بأس بالمشاكسة، أليس كذلك!

دنيت عند قلبه ووضعت أذني اليمنى أستمع للذي يخفق.. إنه كحال خافقي صدقًا، فبعدت أذني وما زال وجهي أمام فؤاده فتجرأت وطبعت قبلة فوقه لمجرد ثواني، ثم أعدت كفي عليه وبنبرة هامسة حدثت نبضه:

- اهدأ.

•••

دخلت قاعة الاختبارات باكرًا ليس لأن الوقت حليفي.. على الإطلاق، وجلست فوق مقعدي بوجهٍ ساخن أزفر بين كل دقيقة والأخرى وقد انتبهت إليّ إحدى الأساتذة لتتقدم بقارورة ماء، فأخذتها وشكرتها أتجرع الكمية الكافية وجعلت من مشط أناملي أداة للتهوية.. أحاول تناسي ما حدث ريثما أنهي الاختبار ثم أتذكر بعدها كما يحلو لعقلي.

دقائق وكانت وصلت ورقة الاختبار فأعدت تركيزي وبدأت في الحل بحماس رهيب.. ولى ما يُقارب الساعة لأقلب ورقتي وأضع عليها القلم ثم كتفت يداي، وضغطت على شفتي أخفي تلك الابتسامة مُتذكرة ما حدث...

•••

بعدَ أن قبِلتُ قَلبه اعتدلت ووقفت أمامه أطالعه بروحٍ مضطربة وعينان تتحرك بين خاصته، لا أتذكر جيدًا كم فاتَ من الوقت في تحديقنا لبعضنا البعض إلى أن رسم ابتسامة واسعة ليطاوعه فؤادي وتمثلها مثلهُ، وتقدم خطوة ليَحِطْ كفيه على جانبي رقبتي وإبهامه يُلاطف نهاية وجنتي فأسند جبهاتنا ضد بعضها وأنا أراقب سوداويته المُشعة ابتهاجًا ولمعة، ليحرمني من الإطالة داخلها بأسدال جفنيهِ.

وما إن لامست شفتاه جبيني أغلقت بُنيَتيّ أنا الأخرى بذات الابتسامة على ثغري، حتى شعرت بقبلته على تلك البُقعة التي تفور بها الدماء.

وأحسست وقتئذ بشعور مَنْ قذف قنبلة وسط حرب يملأها المفرقعات وساحتها كانت قلبي.. كمَنْ فتح أغلال الأقفاص مُحررًا سربًا من الطيور ليعم السلام روحي.. كفرحة طفلة في السابعة بقدوم هدايا عيد مولدها.. كتفتُح بتلات الورد في فصل الربيع... أتذكرك بهدوء كما لو أنك غفيت على كتفي وأخشى أن تُيقظك أنفاسي.

•••

أفاقني من سهوتي صوت المراقبين الذين كانوا يجمعونَ الأوراق لأسلم ورقتي وأغادر القاعة حتى وصلت مكاني المنشود الخالي، وتربعت على الزرع وفتحت الحقيبة ثم بحثت داخلها عن هاتفي لأمسكه وألقي بالحقيبة جانبًا.. عقلي مُشتت بين الاتصال به وبين عدم محادثته من الأساس.

أريد الاتصال به؛ لأنني لن أكتفي منه مهما طال الدهر وسأتمناه في كل وقت، ولا أريد بسبب عمله ولا يجوز هذا التقصير الدائم والذي أنا مصدره.. وأيضًا محرجة بشدة منذ آخر لقاء بيننا، ضربتُ جبهتي **وأنا أخفض وجهي متنهدة:**

- ماذا أفعل؟

أجري المكالمة أم لا! يا إلهي.. حتى لو خاطبته لن أتمكن من تكوين حرفين، تلك الذكرى تُلاحقني.. وفي طيات الحيرة -بين الاستجابة وبين الرفض- التي دامت لوهلة، أخيرًا توصلت إلى حل، سأتناول الفطور.

خرجت من الجامعة بالكامل وذهبت إلى المطعم اشتريت منه شطائر المعجنات، وأخذتني قدميّ للمحطة فجلست على مقاعد الانتظار وما زال التفكير ينهش عقلي، أريد ولا أريد.. والآن ماذا عساي أن أفعل!!

أخذتني الحافلة عائدة إلى بيتي وكنت قد جلست على مقعد فردي بجانب النافذة كما أحب، ونظرت إلى هاتفي لمدة قصيرة زافرة الأنفس ثم فتحته لأتصل به.. قررت بعد عناء من التفكير، فسمعت صوت الرنين وأنا أقرض أظافري ريثما فُتحَ الخط وصغيت إلى صوته الذى ألقى التحية، وفور سماعي له أغلقت دون الرد.

- حمقاء.. حمقاء.. حمقاء كبيرة بحجم الحِمار.

عاتبتني لما فعلته بسبب التردد لكن لن أنكر أنني كنت متوترة جدًا وقتها وذكرى قبلته لجبيني تُزيدني خجلًا.. لا أعد لكَ كم التنهدات التي فارقت فاهي حتى هاتفته مجددًا بعد استرجاع رزانة عقلي:

"مرحبًا!"

"لماذا أغلقتِ؟"

"آه، بشأن هذا.. إنها الشبكة".

كانت هذه أقرب كذبة إلى عقلي، فهمهم وسأل:

"هل أنهيتِ الاختبار؟"

"نعم، لقد مرَّ على خير".

"فتاتي المجتهدة".

ضحكت على ثناءه وتشجيعه لي، كما أنني خجلت لنسبه ياء الملكية.. بتُّ أشعر مؤخرًا بفيضٍ من الخجل، فسأل:

"وأينَ أنتِ الآن؟"

أخبرته أنني في الحافلة بالفعل ولا يوجد مجال لترك عمله والركض خلفي أينما كنت، إلى أن انتهت المكالمة باقتناعه لكلامي.

فتحت حاوية الشطائر لأتناول برفق وأشاهد الطريق المصحوب بأشعة الشمس البراقة واللفحات الباردة وكانت ورقات الشجر تتناثر على الأرصفة.. إنه الفصل الأقرب لقلبي.

وأثناء تناولي ومشاهدتي لأجواء الطرق شعرت بحرقة في صدري فاحمرت عيني بلمعة وأنا أسعل بقوة، فأخذت محرم ورقي من الحقيبة ووضعته على فمي أسعل فيه.. هدأت أنفاسي وأزحت المحرم لأرى ما شَدَّ جذبي وقلقي في آنٍ واحد، وهو تبعثر بقع ضئيلة من الدماء على اللون الأبيض بين يداي.

•••

حلكت السماء وأنارت بالنجوم المتوهجة بها، فتحت الشرفة ووطئت داخلها أستند على سورها.. الأجواء هادئة للغاية والقليل مَن يمرون في الدرب، قلقَ قلبي على خليله مُذُّ الظهيرة لم يراسلني بعدها وتأخر الوقت ولم يعد من عمله؛ لأنه لو عاد لكان حدثني.

عُدت إلى غرفتي وفتحت هاتفي لآتي برقمه وأتصل به،

رنين.. رنين.. رنين.. لم يتم الرد..

من المحتمل أنه لم يسمعه لانشغاله في العمل..! لا بأس.

جلست على حافة الفراش وبدأت بهز قدمي وقرض أظافري، قلبي يشعُر أن أمرًا سيئًا قادم وحاولت إبعاد الفكرة عن لُبّي لكن لم أستطع.. مرت ساعة لتمر ساعتان إضافيتان وها هي الثالثة والوقت أصبح الثانية بعد منتصف الليل ولم تمضي ساعة منهم إلا واتصالي به كان كثيرًا، والنتيجة.. ما من رد.

أمن الممكن أن يكون عاد لمنزله وغفى لذلك لا يجيب؟.. جائز، لكن على الأقل لكان أرسل لي رسالة يخبرني فيها بعودته أو أنه سوف ينام، أو كان أتصل لأجل أن يطمئن عليّ أو أي شيء أو حُجة.. لا أشعر أنه احتمال راجح، أمن الممكن أنه لا يريد محادثتي؟ خاصةً بعدما حدث صباحًا! لكن تلك الأمور تجري لتوطيد العلاقة بيننا لا لخلق المسافات والهجرا!، أمن الممكن أن يكون أصابه.. مكروه!!

لم أبعد هاتفي من يدي وراسلته:

"هل أنت بخير؟ هل عُدت إلى ديارك؟ إذا رأيت تلك الرسالة رجاءً حدثني ولو برسالة فارغة، ليطمئن قلبي".

دقائق أخرى دون استجابة منه والقلق يأكل أضلعي، ففتحت معرض الصور تحديدًا الملف الخاص بصوره لأشبع عيني به وأهدئ من تضايق خافقي، رؤية وجهه كفيلة ببث الطمأنينة في روحي.

تمعنت التحديق به وداخل بثور أنفه، وخطوط عيناه المغمضة، وشقي وجنتاه أثر ضحكته، أطِلت النظر بالصورة لتتشوش الرؤية بماء حارق فتنهمر القطرات كالمطر فوق الشاشة، أجهشت بالبكاء ولا أعرف ما السبب وإن كان لِبلبلة مشاعري نحوه وقلقي عليه فلن أبكي لهذه الدرجة!

لقد كان الدمع تنبؤ حدسي بما هو آتٍ.

****

الفصل الحادي عشر

في تلك الليلة الكئيبة لم يرف لي جفن ولم يهدأ لي بال، لم أطع رغبتي في النوم ولم يتغير لي حال، كان فحسب الانتظار الذي طال.. شقَّ فجر النهار نواحي السماء ولفيح الهواء اشتد لقرب الشتاء، نعيق الغربان كان معزوفة مسامعي أما عنّي.. فالشؤم احتل معالمي.

كنت ممتدة على فراشي ومحتضنة الوسادة الصغيرة وعيناي الذابلة تُراقب هاتفي الذي كان بحوزتي، من المنظور الطبيعي للأمر فهو لا يوجد ما يُدعى للهواجس لكن من منظوري فإنه يستحق أكثر من ذلك، هو ليس مجرد إنسان شعرت بالراحة معه وأحببته وانتهى الأمر! هو جزء من روحي أنارها، وشريان في قلبي ضخَّ بحبّه، هو وريد يمر بهوادة في دمي.. كيف لا أخشى عليه إن أصابه سوء؟ أو أُلام لقلقي الزائد وأنا روحي بروحه مرتبطة! العاشق لا يُلام.. أبدًا.

ولى بي الزمن إلى أن توقف في ميعاد لقائنا، إنها السابعة صباحًا.. التقطت هاتفي الذي كنت أراقبه طوال الوقت وتطلعت إليه فلا يحمل إشعارات جديدة، ففتحت معرض الصور الخاص به ومجددًا أحدق فيه وكاد عقلي يُخيل إليّ وجوده من خلال الصورة، كل شيء بهذا القلب قلق وصورتك هي السكينة الوحيدة التي أحياها.

أطلت وأطلت وتناسيت نفسي متعمقة في جوف ملامحه حتى أتى صوت إشعار رسالة جديدة، انتفضت من مكاني وانزلق الهاتف من يدي لولا أنني أمسكته حينما علمت أن الرسالة منهُ، حَيَّ خافقي ونبضت الروح فيه بتسارع ضرباته، البسمة شقت وجهي وعيني لمعت بفرحة فرج الانتظار، ولم أتأخر وفتحتها **وكان محتواها:**

"اطمئني، أنا بخير".

فقط هكذا!! بعد ذاك الغياب ألم تقُل سوى هذا وحسب! ثم إن قلبي يخبرني العكس ولا أستطيع تصديقه، فأرسلت:

"كاذب.. أريد سماع صوتك".

مرت دقيقتان انتظرت فيهما اتصاله ولم يتصل بعد ريثما رأيت إشعارًا جديدًا وكان مقطع صوتي، فتحته وصغيت إلى صوته الهادئ كعادته يقول فيه أنه بخير وألا أقلق عليه.. أيضًا قلبي لم يصدقه هذه المرة وداخلي إلحاح يبلغني أنه ليس على ما يُرام، فأرسلت:

"روحي بروحكَ وثاقٍ ملتئم رغم نصفه المعقود، والطامة التي تضيركَ تضيرني فكن بخير كي لا يلحقنا الشَجَّن".

•••

في ذلك اليوم بعد أن راسلته سافرت إلى أرض راحة جفوني حتى استيقظت عند حلول الظلام، التواصل بيننا انقطع وانشغلتُ في دراستي طوال الليل؛ لأنها كانت ليلة الاختبار ودرست إلى أن طلع النهار واقترب موعد مغادرتي، فتجهزت بالكامل وخلال استعدادي كنت أنظر للكتاب الموضوع أمامي وأراجع مرارًا وتكرارًا على الأساسيات نظرًا لضيق وقت دراستي.

انتهيت بفستان ذي نقوش وردية ومعطف قصير، والسبب..! تذكري امتداحه لي بذاك النوع من الملابس، خطفت نظرة على الهاتف المتواجد فوق المكتب؛ لأنني كنت على يقين من إرساله رسالة كما تعودت منه على هذا المنوال، لكن لا يوجد ما يخصه من الأساس.

أشعر بانقباض صدري.. هل أصبحتُ لا أطاق وملَّ منّي!.. لِمَ التغيُر فجأةً؟.. فتحت الرسائل النصية وأرسلت:

"هل سترافقني اليوم؟".

كنتُ خائفة جدًا من التعرض للخذلان وتمنيت أن يُجيبني بالإيجاب، فأرسلَ:

"أمن يوم تركتكِ وحدك".

ردهُ ردَّ الرُوح بِروحي.

"حسنًا".

اكتفيت بهذا الرد فلا أود الدخول في نقاش التلميحات.. إنه يُرهق عقلي في خلوتي.

"في انتظاركِ".

تنهدتُ مُخرجة تلك الأفكار التي تراودني كعدم تلهفهُ لرؤيتي وانعدام الرغبة في مُرافقتي أو انقلاب علاقتنا الهادئة إلى وضع غير مستقر.. أخذت الأدوات التابعة لي ثم أغلقت الباب مع استدارتي خارج البيت.

عندئذ وقوع بصري خارج المبنى كانت السماء تخيم بالرماد والقليل فقط من شعاع الشمس البارز بين مفترق السحب كما الحال مع الهواء البارد الذي بسط جناحيه بين خصلات شعري يُقشعرني، شددتُ المعطف حولي ومشيت بخطوات سريعة كي لا أشعر بالبرودة.

وصلت عند المحطة فلم يلتقطهُ نظري وبحثت عنه على طول المحطة عند الجانبين ولم يكن حاضرًا، لقد قال أنه في انتظاري وهذا يعني وصوله قبلي فلِمَ إذن ليس موجودًا!، أشحت بعيني إلى الأمام ووقف الهواء في رئتاي، قد كان قائمًا قبالي في الجهة الأخرى، أي الطريق المُعاكس.. لماذا يقف هناك ونحن اعتدنا الانتظار في محل ثبوت قدميّ؟

أملت رأسي جانبًا متعجبة من فعله فتقدم عابرًا الطريق إلى أن وطئ أمامي، وقبل أن أتفوه بحرف سبقني بكلامٍ ألجمني خجلًا:

- أحب مظهرك بالفستان كثيرًا كأنهُ يلوح في الأفق البعيد.. ويجعلك جميلة.

ابتسمت بتورد طفيف في وجنتيّ وتعمدت ألا تنظر بُنيتي لسوداويته، ببساطة لأنه لا يحرك ساكنيهِ من فوقي، وبمكرٍ منهُ جعلني أنسى أن أسألهُ عن سبب الغياب أو قلة كلامه معي.

لم تتأخر الحافلة في الوصول فصعدنا وجلسنا بجانب بعضنا، عطرهُ يطوف حولي مُخترقًا حاسة الشم لدي، وتلقائيًا أغمضت جفناي.. عطرهُ هادئ يُشبهه ومريح للأعصاب جدًا.. هل شعرت من قبل أن عطر أحدهم يحتضنكَ؟ هذا هو ما شعرتهُ.

لم أدرك موقفي من تلك اللحظة بعد أن أغمضت عيني وأملت رأسي على كتفه، وبعد قليل من الوقت شعرت بيده الأخرى تُمسد فوق شعري فنمَت ابتسامة خفيفة على ثغري قبل أن تتلاشى بالتدريج وأغفو.

مضت مُدة قصيرة على ما أعتقد وتخلل طبلة أذني صوت الكاميرا فرفعت حاجبي أثر الصوت وفتحت عيني بمهلٍ لأرى صورتي وأنا نائمة منذ ثواني، مددت يدي لألتقط الهاتف من أجل حذفها لكنه كان متوقعًا مني رد الفعل هذا وبسرعة الضوء أبعدها عن هدفي **وقال:**

- الآن أصبحنا متعادلين.

وصرنا في مشاورات وجدال بين أن يصغي لأمري وبين رفضه للأمر، لكننا كنا نضحك بصوتٍ واضح مما جعل ممن ينظرون إلينا يضحكونَ معنا وعلينا.

حينئذ كنا على وشك النزول من الحافلة فانتشلت الهاتف منه بخفة يد ولم يدرك أنني أخذته إلا عند هبوطنا، فلوحت له بما في يدي خلال ركضي ليتعقبني بعدها.

أخذتني الخطوات عند مشتل زهور فوقفت أجمع أنفاسي التي تبعثرت في الطريق ووقف **"عُدي"** أمامي بمسافة ليست بعيدة وتخصر هو الآخر ليلتقط أنفاسه.. نادتني رائحة زهرة الأقحوان فاقتربت من باب المشتل -الذي كان مليء بالورود- أبحث عنها حتى وجدتها فثبتُ أمامها لأنحني وأشمها وأناملي داعبت أوراقها بخفة.

- أنتِ.

سمعت نداء صوته الجميل لي وألتفتُ إليه فكانت خطواته تقترب منّي إلى أن وطئ قبالتي، اعتدلت من انحنائي وتحدثت أثناء تلمسي للزهرة:

- سمي الأشياء بمسمياتها إلا أنا.. دللني.

ابتسم لاعقًا شفتيه ليتقدم تلك الوتائر الفاصلة بيننا فإذا بأصابع يده تتحسس وجنتي ليقول بنبرة سلسة:

- أنتِ.. زهرة.. أنتِ أقحوانتي.

وكأنَّ كل الزهور تجمعت في روحي لتنبُت تدريجيًا من أخمص قدميّ وصولًا إلى وجنتيّ التي زُرعتْ بها الورود الحمراء.. أشحت نظري بارتباك بعيدًا عن عينيه المهلكة لقلبي وتلفظتُ خجلة وأنا أبتسم:

- أحببتهُ.

فقال:

- أنا المقصود؟!

تسارعت دقات قلبي ولم يخطر على خاطري سوى سؤال واحد، هل حانَّ وقت الاعتراف؟ لست مستعدة بعد، وحاولت أن أجعل من نبرتي طبيعية وأكثر هدوءًا خافية بها توتري، فقلت ضاحكة:

- أنا لا أحبك.

فقال باسمًا:

- إن فيها أحبك وهذا يغنيني عن باقِ الجملة.

****

الفصل الثاني عشر

حان وقت اختباري قبل النهائي.. حسنًا، ينتابني بعض التوتر لعدم مراجعتي للمادة فحسب لهوت صباحًا مما جعلني أنسى الاختبار بالأساس..

بعد اختباري الأخير سوف يحقق لي الجنيّ خاصتي أمنيتي ونذهب في نزهة، متحمسة جدًا.

أتت الورقة البيضاء لأبدأ بملئها وقد أنهيتها فيما يُعادل النصف ساعة، شككتُ في قدراتي وقتها وكيف بتلك السرعة أنهيت الاختبار الذي لم أراجع مادته في الأصل؟ هل كان في مستوى سلاسة جريان المياه؟ أم أن إجاباتي متسرعة وخاطئة!.. على كُلٍ انتظرت الثلاثين دقيقة الباقية لأغادر القاعة في نصف الوقت من الامتحان.

كانت وجهتي ذات المكان الذي نسبته لنفسي وجلست أفتح كتابي وشرعت في مراجعة الأسئلة التي أتذكرها، أيجب أن أقول أن اليوم هو يوم حظي، أم أن اليوم جميل! جميع ما راجعته كان صحيحًا وأنا متأكدة من ذلك، وذاك زادني فخرًا واعتزازًا بذاتي.

كانت الفرحة تغمرني فقررت أن أشاطره سعادتي لأتصل به وأخبره أن فتاته مجتهدة جدًا، رنين.. رنين..

"مرحبًا **عدي**، قبل أي شيء أو أن أشغلك عن عملك لقد أجبت كافة الأسئلة بالإجابات الصحيحة وحقًا أنا سعيدة جدًا".

وصلتني قهقهته قائلًا:

"أعلم أن أقحوانتي مجتهدة ولا تنسي أنني أثق بكِ منذ البداية".

"أعلم".

ابتسمت والصمت كان ثالثنا وكنت أفكر في رغبتي التي أرادته توًا حينما أصغيت إلى صوته، ومع أنني أحاول أن أجعله منتظم في وظيفته وألا أكون سببًا في طرده يومًا.. لكنها رغبتي به لا تخمد، فقلت بهدوء مغاير لنبرتي المرحة التي تسبقها:

"عدي..".

"أقحوانتي".

فتفوهت ضاحكة:

"جديًا! أنا لا أمزح الآن".

"وأنا أيضًا لا أمزح.. أنتِ أقحوانتي".

"حسنًا، حسنًا.. هـ..هل يمكنك طلب الإذن من عملك ونعود سويًا؟".

تلعثمت في البداية لكنني نطقت بها مسرعةً إحراجًا من طلبي وخشية من الرفض، فقرضت ظافري توترًا لأسمع رده:

"موافق، لكن يوجد شرط..".

"ما هو؟".

"أخبريني لماذا تريدين عودتي معكِ؟".

صمت أفكر في إجابة مقنعة عكس ما بداخلي من مشاعر تجاهه وألا أفضح قلبي أمامه، فأنا بالطبع أريده لأنني لا أمِل من رؤيته، بل آملة في بقائه جانبي ما بقِيَ من الزمن.. لا أكتفي من وجوده وأطمع في الطمأنينة التي تلامس روحي برفقته، فقطع حبل أفكاري عنه بقوله مستفهمًا:

"ولِمَ قلبك ينبض بصخب، الآن؟".

بعد قوله ارتفعت نبضات قلبي أكثر.. أشعر أنه مرآتي، هو يراني من الداخل قبل الخارج، هو يفهمني.

"كيف علمت؟".

بكل غباوة وتسرع تفوهت بما قلته ليضحك بخفة **مُجيبًا سؤالي**:

"أنتِ تؤكدين صحة كلامي إذن!".

"لا، لا لا هو ليس كذلك.. وحسب أريدك **"عُدي"** ما المشكلة في ذلك؟".

انفعلت نتيجة ارتباكي الفاضح و وقوعي في فخ أحاديثه، ليقُل:

"لا توجد مشكلة كنت أريد فقط أن أعرف السبب.. ألديكِ مانع في ذكره يا ترى!".

كان رده أقرب بمن قلب الطاولة فوقي ليرغمني على الإجابة ولا مفر منه.. شهيق، زفير.. حسنًا سأجيبه:

"أريدك لتبقى بجانبي.. هذا كل ما في الأمر".

شعرت به يبتسم وهو يردف بعدها قائلًا:

"سأرافقك كظلك".

ابتسمت بعفوية لقوله الذي أصبح ردًا ثابتًا على قولي، **فقال:**

"ولكن هل يمكنك الانتظار ساعة قط، لابد أن أنجز ما بيدي أولًا حتى أستطيع الحصول على إذن".

همهمت لأنظر إلى ساعة يدي وقُلت:

"حسنًا، أنا في انتظارك يا **عدي**".

ليست أنا من تقل آسفة لطلبي، أو لا بأس تابع عملك ويمكننا تعويض اللقاء لاحقًا، أو أي شيء من هذا.. أنا أريدهُ فلِمَ أتجاهل مبتغاي به!

أغلقنا المكالمة وانتظرت بالفعل تلك الساعة التي كانت طويلة بشكل جعلني أريد أن أركض جهة عمله وأذهب له أنا لا هو، لكن لا أعرف موقع العمل تحديدًا.. أتاني إشعار رسالة نصية منه يخبرني أنه أمام الجامعة بالخارج، فخرجت إليه ليباشر مباشرةً بقوله حينما التقينا:

- ما الذي ترغب به أقحوانتي المدللة؟

فأجبته باسمة خلال سيرنا:

- أقحوانتك تريد تجرع أيّ مشروب ساخن يُناسب الطقس الغائم.
- أوامر جميلتي مُطاعة.

مشينا مسافة لم تكن كبيرة إلى أن وصلنا مقهى ودخلنا فكان المكان دافئ على عكس الخارج، وأشار لي بيده أن أجلس على إحدى الطاولات ريثما أن يعود بالقهوة.. ولم نجلس تلك المرة مقابل بعضنا، بل جانب بعضنا بعضًا و وضع مشروب كلينا أمامنا.

أخرج هاتفه ليَوصِل السماعة في ثقبه ويضع إحداها في أذني والأخرى في أذنه، واستمعنا إلى أحدث اصدار في الوقت الحالي وكانت غنوة "وماله" فكانت هادئة وساحرة لأسند رأسي على كفي وأحدق بعينيه التي كانت تبادلني التحديق، وابتسامة سلسة ارتسمت على فاهنا.

نقرات خفيفة على النافذة بجوارنا بدأت تطرق أقوى لنُدرك أنه الشتاء ويبلغنا بوصوله، لكنه لم يستطع فصل عناق أعيننا عن بعضها.

نظراتنا لبعض لم يُقطع رباطها كأننا نخشى الرمش وأن تفوتنا لحظة دون التعمق داخل المُشعة حبًّا، بل كان الرباط يمتد دون أن يقدر أي منا على أن يحيد بصره عن الآخر، كانت أفضل لحظة وأجمل وقت مررتُ به على الإطلاق.. كنتُ لا أتمنى أن ننتهي وأن أستمر بالنظر إليك إلى الأبد ولا أتعب.

تلك النظرات الهائمة والتي لا تغفل كانت أشبه بالعيد لروحي المُتهللة بفضله، وعقلي وقتئذ لم يُردد سوى لماذا يطّلع فيّ هكذا! فأنا أنظر له لأنني متيمة به وبكل تفصيل به، ولا أعلم من أين أتت جراءتي في مبادلته النظرات لكنها فرصة ولن أهدرها في الخجل.

- أحدق فيكِ.. هكذا أملئ عيني بكِ.

بعد صمت ألسنتنا استطرد بقوله ما في قلبه من إجابة سؤال خاطري، ابتسامتي توسعت أكثر فأكثر فاقتربت منه وتلمست جانب وجهه وأنا أجول بنظري في معالمه **قائلة**:

- في ملامحك ألفة فائقة تهدهد روحي، وأحيانًا أخرى أعتقد فيها أن الأمان قد تسلفَ وجهك.

اقترب مني وأمسك بكفي الذي على وجهه وهبط به إلى قلبه المتسارع لأتحسس تلك النبضات، فتخبرني بما يحمله لي صاحبها دون أن ينطق، أغمضت عيني أزفر براحة من حال فؤاده الذي يشبه فؤادي وقلت هامسة بغير إدراك:

- ألم يحن الوقت بعد؟

أجابني بصمته الذي طال ففتحت عيني لأرى نظرته تغيرت من هائمة إلى أخرى مهتزة بين عيناي، لماذا؟ ما الفائدة من الإطالة بينما كل منا يعلم بما في وجدان الآخر!! أنا أفرح بالحديث معك وتضحك روحي.. لا أعلم متى أحببتك أو كيف أو لماذا لكن ما أعرفه أنني لا أريد سواك وألا أنتمي لغيرك، أنتَ الحيّ الباقي في قلبي إلى الأبد.

لم أصرح عما جال بخاطري من اعترافات ولو بكلمة واحدة واكتفيت بالصمت بعد أن سحبت يدي بعيدًا عنه، وعبست ملامحي من السبب الذي لا أعلمه.. لِمَ يخفي الأمر ويطيله!!

أعادَ كفه فوق كفي مُربتًا، وقال:

- قريبًا.. سيحين قريبًا.

•••

تبدل النهار بالليل وانقلبت السماء الممطرة بالفضاء البهي بنجومه كتبدل حال قلبي من الحزن إلى السعادة، ما زال السؤال عالقًا في ذهني وكلما فكرت به أكثر شعرت باضطراب خافقي وخوفه يزداد، لكنه أعطاني اليوم شعاعًا من الأمل وأن اعترافنا قد اقترب موعده.

اقتحمت الشرفة أطالع صفاء السماء وأصغي لحكايات النجوم لتخبرني بأسرار محدثيها، فكل مُحبين الترقب في عمق الفضاء يروّن رواياتهم للنجوم فتلمع عند انصاتها للقصة، توهجها يوحي بالقصص المليئة بالحب والألم؛ لذلك استقرت بُنيتي المنعكس في بؤبؤي لمعة النجوم أخبرها من خلال النظر بحكايتي أنا أيضًا..

ذات ليلة هادئة.. كان هذا القلب محاط بالعزلة إلى أن طرق على وريديه طرقات متتالية، نقرات أخافته من جمالها والتعلق بها.. استجاب الفؤاد لأمر النقرات وسعى حول مَنْ صاحب هذه الجلبة والضوضاء الذي يُحدثها فيه؟ ففتح نافذته ليُفاجئ بقلبٍ مُزهر يقف

على بابه، أخبره عبر إحساسه أنه أقبلَ من أجل بتر أرضه البور ليزرع مكانها الورود الحمراء وألا يرفض عَرضه.. انسحب القلب المُستمع خلف نافذته وأحس بوخز مستمر من المُلِح القابع بالخارج، حُلوة رغم ألمها.. فقرر السماح له بإعطائه الفرصة وأنه لا بأس بخوض التجربة، وفتح بابه وأخبر ذو الورود أنه آتي في جوف وجدانه، واقتحمَ القلب لتنمو فيه أوراق الصَبَابة والتفتْ بلينٍ حول نبضاته، لكن إلى وقتنا هذا لم يزرع به وردة حمراء واحدة كما وعده..

طالَ تحديقي للنجمة وأنا أخبرها بقصتي فارتسم وجه توءم روحي داخلها، فقلت له برجاء:

- أكره إطالة التلميحات ولا أحب الحب الأبكم، صارحني بمقدار حبك لي واجعلني هَوِسة بكَ.

رجعت خطوتين إلى الخلف ولم تتزحزح مقلتيّ عن نجمتي لأكمل:

- احتفظى بسري جيدًا مؤقتًا، ففي يوم ما سوف تُفشيه لمن بعدي ويماثل قصتي.

أغلقت الشرفة وأسدلت الستائر لأرتمي فوق الفراش، ومضى الوقت في تقلباتي لعدم قدرتي على النوم، كيف أغفو ولقطات اليوم تتراوح بين طيات ذاكرتي؟

أيقنتُ تلك الليلة أنني واقعة في غرامه عندما لم يدق بابي النوم؛ لأن الواقع معه أفضل من زيارته في أحلامي.

الفصل الثالث عشر

في اليوم التالي استيقظت مُبكرًا على الرغم من قلة عدد ساعات نومي لأجل دراسة آخر مادة، وسعيدة لاقتراب إنهاء مسيرتي التعليمية ومتحمسة لنزهتنا سويًا، فمن المحتمل بعد غد عند إنهاء اختباري أن نخرج معًا أو ندبر يومًا متفق عليه ونتنزه فيه.

استدرت بالمقعد الخاص بالمكتب أسحب الهاتف من فوق الفراش، وأرسلت إليه عندما لم أجد منه إشعارًا:

- "صباح الخير، أمستيقظ؟".

بعد دقائق قليلة وصلني رده:

- "أجل".

أين تحية الصباح! ولِمَ الرد محدود! فأرسلت مجددًا:

- "هل أنتَ بخير؟".

- "ربما..".

انتابني القلق حياله وحديثه أصابني بالتعجب من ناحيته، لم يكن على طبيعته كما أعهده.. به شيء ما، وأرسلت:

"ماذا بكَ؟".

مضت فترة ليست بكثيرة كان خوفي عليه يتضاعف مع كل دقيقة تمُرّ، إلى أن أرسل:

"أريد منكِ أن تراسليني حينما أُهمَل وأن تكوني جانبي عندما يتركني الأقربون، وأن تتقبليني في الوقت الذي أبغض فيه نفسي، وأن تصيري ملجأي وحصني الرحيم حين تمتلكني الوحدة والعزلة ولا تملي، وأن تحتويني بعطائك في اللحظة التي تثقل على رأسي الأفكار".

بدأ قلبي ينغز بألم وليس فرحة من كلامه الذي يريدني أن أكون مهتمة به، أو أن أتقبله كما هو وأصبح ملاذه الوحيد، أو أن أحبه على الغالب وأظهر له هذا الحب.. على العكس لم أفكر في ذلك كله بقدر ما فكرت وتساءلت عما يحزنه وما سبب تلك الأقاويل، ولماذا طلب هذا كافةً؟ ألم أكن له في وقت ما كما أخبرني الآن!

- "ما الأمر عدي؟ أنتَ تُقلقني".

فوصلني إشعار جديد منه:

- "الأمر كله أنتِ".

لم أفهم! هل أنا سبب مُعاناته أو تسببت في تشوشه؟ هل سبب حزنه منبعه أنا؟

•••

توالت ساعات النهار بين مراسلتنا ومحاولاتي في تخفيف ألمه الذي أجهله وبين دراستي، أسعى للتوفيق بين الأمرين إلى أن حلَّ الليل.. رسالة جديدة من (بسمة روحي) **وكان محتواها:**

- "وماذا تفعلين الآن؟".
- "أحادثك وأدرس".
- "هل قطعت تركيزك؟".
- "لا، بالأساس منذ الصباح الباكر وأنا أدرس ولم أتحرك من مكاني كي أقضي حاجتي، أو أتناول شيئًا، أو أخذ قسطًا من الراحة ولو قليلًا".
- "ولِمَ؟ الوقت لن يضيع منك على تلك الدقائق المعدودة!".
- "لا أدري فكما تعلم ذلك آخر اختبار وأتمنى أن أجتازه بسلام".
- "أنا أثق بفتاتي المجتهدة وسيمر مثلما مرَّ ما قبله من اختبارات".
- فرحتُ من إيمانه الواضح بي وتشجيعه الدائم لي، فأرسل مجددًا:
- "أما الآن سأتركك تتابعين دراستك ولا أريد أيّ اعتراض، مفهوم!".

ضحكت متخيلة شكله وهو يقولها لأرسل إليه:

- "حسنًا مفهوم، وعندما أنتهي سوف أحادثك أنا".
- "أنتظرك".

أغلقنا المحادثة عند هذا الحد وأكملت ما تبقى من المادة.. لا أتذكر تمامًا ما مضى من الوقت ولكن أعتقد ما يقارب النصف ساعة، لستُ متأكدة لكن ما أعرفه أنني لم أتخطى الستين دقيقة حينها.

أشعل هاتفي باتصاله ورغم تعجبي من اتصاله لأنني أخبرته عندما أنتهي سأحدثه أنا، إلا أنني أجبت عليه فورًا وبدون أيّ مقدمات **قال**:

- "ادخلي الشرفة".

استنكرت الأمر قليلًا لكن بالأخير لبيت مطلبه، فرأيته يقف بالأسفل تحت الشرفة ووجهه مرتفع يبصر إليّ كما أنه يحمل كيسًا أبيض اللون في يده اليمنى وبيده اليسرى يمسك الهاتف يحدثني، **فسألته**:

- "ما الذي جاء بكَ الآن وما الذي تحمله معك؟".

فقال:

- "إذا كنتِ تريدين معرفة سبب مجيئي وما أحمله معي.. انزلي إليَّ توًا".

●●●

لبستُ معطف طويل فوق الملابس المنزلية ولففتُ وشاح أحمر حول عنقي.. الجو اشتد برودة، أخذت هاتفي ورأيت مصابيح البيت طفئت مما يؤكد أن أسرتي نائمون فالآن الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، انتشلت المفتاح من ثقب الباب وغادرت.

ركضت فوق الدرج إلى أن انتهيت منه سريعًا متشوقة لأعرف ما سبب مجيئه وما يحمله، خرجت من الفناء بصدر يعلو ويهبط وابتسامة تزين ثغري فرأيته ينفخ في كفه المنقبض ويرتدي قَلْنْسُوة سترته، وضعت كفيّ في جيبي معطفي الصوفي وتساءلت بهدوء:

- ما الذي أتى بك في هذه الساعة وفي تلك البرودة؟

فقال مازحًا:

- ألا يوجد اشتقت إليكَ يا عزيزي.. كنت أتوق لرؤيتكَ.. تدعوني إلى غرفتك وتحنو عليّ من برد الشتاء بتدفئة عناقك لي..

كنت في البداية أضحك على حديثه وطريقة كلامه المزيفة إلى أن انقلب وجهي وانزعجت في نهاية قوله ريثما غمز، فتقدمت منه وركلت ساقه لأقل بنبرة ضجرة:

- ما الذي تقصدهُ؟ ها!

تأوه بألم وانحنى ليمسد مكان الضربة قائلًا:

- ما بك!.. أمزح معك.

همهمت بغير اكتراث وقلبت عيني في الأرجاء، فقال ساخرًا:

- وكأنك لم تعانقيني من قبل!

تورد طفيف نمى في وجنتيّ خجلًا من موقفي الغبي ومن تذكيره لي بذاك اليوم، فحمحمت متحدثة بذات النبرة الضجرة:

- لماذا أتيت؟

تابعت سؤالي وعيناي على الكيس:

- وما الذي بداخله؟
- لا تهونينَ عليّ أن تنامينَ دون أن تتناولِ شيء.

بعد أن اقترب خطوة تجاهي وقال ما جعل من الأفراح تشتعل داخلي، أعطاني الكيس لآخذه منه وتلمست كتفه أمسح عليه بحنانٍ قائلة:

- أنا ممتنة لوجودك معي، أنتَ أفضل شخص على الإطلاق.

طأطأ رأسه ليحركها بالإيجاب ثم ابتسم ولاحَ لي أنه خجل، فابتسمت ابتسامة واسعة على لطافته وقرصت وجنته اليسرى وقلت:

- سوف أنتظرك بعد انتهاء اختباري لنقرر يومًا للنزهة.

وخلعت وشاحي لأبعد القلنسوة عن رأسه وألفه -الوشاح- حول رقبته ثم وقفت على أطراف أصابعي أعاود وضع القلنسوة مرة أخرى.

- خُذ حذرك في العودة.. عمتَ مساءً.

تركته في ذهوله وخجله وركضت من أمامه عائدة إلى البيت.

●●●

استقمت من نومي بفزع وألم لأركض نحو المرحاض سريعًا أتقيأ كل ما بجوف معدتي وما جلبه لي من طعام، وأثناء إفراغ ما داخلي لمحتُ بقع الدماء الطفيفة التي تناثرت.. أو هُيأ لعقلي أنها دماء فاستغربت الأمر قليلًا ثم خرجت عندما شعرت بالتهاب في المعدة.

بحثت بين الأدوية عن مسكن للآلام ووجدته لأخذ الحبة مع تجرعي لكأس الماء، وعدت أدراجي حيث الفراش فكان تنفسي مثقل بالتعب وبالوخز المؤلم وجبيني يتصبب بقطرات العرق، فأنرت هاتفي لأرى الوقت وكان الخامسة صباحًا.. لم يمر سوى ساعتان من وقت نومي.

تنهدت بتعب لأعاود الاستلقاء تحت الغطاء وأغمض جفناي لكن كان للألم رأي مغاير حيث اشتد عليّ وبدأ يمنعني من الراحة، فتذمرت صائحة:

- اللعنة على الدراسة والاختبارات بقلقها.

تلألأت عيني أثر ذلك التعب الذي يفتك بأحشائي ومضت مجرد دقائق أخرى لأشعر بلسعة في حلقي ورجفة جوفي وثقل في معدتي، انتفضت مرة ثانية فدفعت باب دورة المياه وجلست أرضًا ممسكة بحواف المرحاض وأنا أتقيأ بقوة لدرجة احمرار عيني وادمعها.

لم تُغلَق جفوني وترتاح إلا بعد ساعة وعشرون دقيقة من وقت إشراق الشمس مستسلمة للنوم وتركت الألم يفعل بي ما يشاء..

في منتصف النهار كنت اكتفيت من النوم ففقت واغتسلت حينما شعرت أنني أصبحت على ما يرام الآن، ثم جلست في مكتبي لأجل الدراسة.

جرت عقارب الساعة حتى حلول الليل وكل ذلك الوقت لم أحس على ذاتي المنهكة في الدراسة، ولم أكل شيء ولم أتطلع على هاتفي أو أغادر الغرفة فحسب الدراسة لكي أنتهي منها أبديًّا و بأمان، فأتت أمي واستخرجتني من مستنقع تركيزي لتخبرني **قائلة**:

- اتركي الدراسة قليلًا وتناولي الطعام، أنتِ لم تأكلين شيء منذ الصباح.. هيا استقيمي وتناولي طعامك وأخلدي بعدها للنوم.

هززت رأسي وقلت لها:

- كم الوقت الآن؟
- الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

حركت رأسي بمعنى نعم، كيف لم أدرك مرور الزمن من حولي!..

خرجت من الغرفة وجهزت شطيرة بالمربى وحين إقبالي على قضمها لم أتحمل رائحتها ليعود النبض في معدتي مجددًا، تركتها وزفرت ضجرًا من الأمر وعدت إلى غرفتي.

بسطت الغطاء فوق السرير لآخذ الهاتف واُحتضَن من قبل الفراش وفِراشه.. أضأتُ شاشة الهاتف بقلب علت دقاته لهفةً وابتسامة خفية أبحث بين تلك الإشعارات عن إشعار منه، لكنه لم يراسلني بتاتًا ولو برسالة على الأقل أو يجري اتصالًا بي، ذبلت تعابيري وانزعجت منه.. هل نساني طيلة اليوم؟ ألم يفتقدني أبدًا!

****

الفصل الرابع عشر

صباح يوم جديد.. صدحَ جرس المنبه لأستفيق بروية وأغلقه، قمت بجزعي العلوي حتى أصحو من الشعور بالخمود، دقيقتان وكان الوضع أفضل لأنظر يميني على المُلقى بجانبي فأخذته وفتحته، وكما هو الحال من ليلة الأمس ليس بشيء جديد منذ آخر مرة تحدثنا بها ولم يحادثني بعدها.

على كل حال، بعثرت شعري كلًا وغادرت الفراش متجهة لدورة المياه ويليه تجهزي إلى أن مرت نصف ساعة، جلست على الأريكة و وضعت الحقيبة جانب ساقي فدحرجت الهاتف بين يداي حائرة في هل أبدأ أنا المحادثة أم أنتظر قليلًا ريثما يبدأ هو!

زفرت بصوتٍ عال وألقيت الهاتف قويًا بجواري.. تفكيري محاصر فيه ومشغول بسبب تغيبه، كنا جيدين حتى آخر مقابلة لم ينزعج أي طرف من الثاني وأبدًا لن يحدث، كما أنه أتى لي بوجبة كنوع من الاهتمام ولا أعتقد أنني فعلت شيئًا خاطئًا في حقه وقتها أو بعدها.. ولا في السابق.

انتظرت فترة ليست بطويلة لأقرر في النهاية أن أراسله أنا:

- "صباح الخير.. أين أنتَ؟".

أرسلتها بينما كنت أعيد قراءة المحادثة وما بيننا من رسائل قديمة لعلي ألمحُ خطأ صدر مني دون أن أدرك، وأيضًا لتمضية الوقت ريثما يصلني رد منه.. انسجمت في الكم الهائل من الرسائل لأضحك على مزاح ظريف فات بيننا ومن ثم ابتسِم على كلام منبعه القلب واعترافات صادقة متبادلة..

الحزن لم يعرف طريقًا إلى قلوبنا ولا اللَوْعة حاولت إثقالنا بالهموم أو سعى الكره على التفرقة بيننا، فقط علاقة يعمها الهدوء والسلام.

انتبهت إلى الوقت الذي ركض بغير ملاحقتي له وتأخري على ميعاد ابتداء الاختبار بعد ساعة إلا عدة دقائق، علقت الحقيبة على كتفي وأخذت المفتاح والهاتف الذي تمعنت النظر فيه مرة أخرى عسى أن يكون تواصل معي، وقبل أن أغادر اتصلت به لأسمع أنه مغلق.. أغلقتُ المكالمة منزعجة منه وغادرت المنزل آملة أن أراه في المحطة وينتظرني.

•••

كان الفاصل بين الخطوة والأخرى كبير مُتلهفة لرؤيته وطمأنة ما يقبع في أيسر صدري، فمن الممكن أن يكون هاتفه يحتاج للصيانة ومعطل منه.. وصلت المحطة بأنفاس لاهثة ومتقطعة؛ لأنني كنت شبه راكضة، وضعت يدي فوق صدري أجمع أنفاسي وأبصرت في المكان أبحث عنه سواء من الجالسين أو الواقفين.

مشيت بينهم بغرض أن التقط وجهه الذي يبث الطمأنينة في فؤادي لكنه دقَّ بخيبة من فقدانه وسط الناس، من الغريب اختفائه اليوم..! إنها أول مرة ألا نكون معًا وأن أغادر صباحًا بدونه.

شعور الفقدان يمتلكني، أنا.. أنا ناقصة بدونه.. قطعة من قلبي ضائعة بلاه.. أنا تائهة وسط عالم لا أنتمي له ولا ينتمي لي، وسط عالم أفتقرَ رحابة صدره وعناق عينيه الفاتر، وسط عالم اختفت السكينة باختفاء وجوده..

أود أن أبكي، فحسب الاختناق نال منّي والغصَة أخذت حيزًا فيّ.

قبضت على كفيّ وتنفست الصعداء ألملم تبعثر نبضات قلبي وأستعيد رباط جأشي إلى أن أتت الحافلة وصعدتها.. وبعد أن جلست وحيدة وأمسكت هاتفي لأعاود الاتصال به فكان كل ما استقبله هو إغلاقه للهاتف، تنهدت ضيقًا من الأفكار غير المتناهية داخل عقلي الصخب وكم الاحتمالات التي وضعتها في الحُسبان.

انتهى الطريق بحضوره في باطني رغم غيابه في واقعي، وقدمتْ على الاختبار الأخير الذي كنت متحمسة من أجله سابقًا على عكس الآن، وتواصلت معه من مكالمات ورسائل عِدة دون جدوى.. تركني في حيرة ونار موقدة اشعلت لهيب قلبي بحلم اللقاء، وخرجت من الجامعة أكمِل بحثي عنه في الطرقات التي كنا نلتقي فيها فأنا لا أعرف مكان عمله أو عنوان منزله تمام المعرفة وإلا لما كنت انتظرت ثانية واحدة.

قضيت اليوم من بداية نهاره إلى حلكة ليله أتجول في ذات المسارات مرارًا وتكرارًا، ولم أشعر بأصابع قدمي اليمنى التي نزفت ولا بالقدم اليسرى التي تورمت، الطرق والأماكن خالية منه.. من ظله، من عطره، من ضحكته، من أمانه، من عينه، من روحه.

تعبت وشعرت بالإرهاق في كامل جسدي فجلست على إحدى أرصفة الشوارع أنظر إلى حال قدمي.. إحساس المرأة دائمًا صائب وأنا قلبي يُحدثني بالسوء، فأدمعت عيني من ذاك الشعور الخانق وكُلّي أماني راجية أن يكون بخير وألا يصيبه مكروهًا.

•••

بعد بحثٍ دام ساعات وألم لازم بدني ذلك الوقت لكن لم يكن بمقدار ذرة مما في قلبي من ألم وقلق عليه، وصلت البيت بملامح جافة وذابلة فلم تُسقى روحي الراحة برؤيته.. دخلت غرفتي مباشرةً واتصلت به فكان ما زال مغلقًا، أخرجت ثياب من الخزانة ودلفت دورة المياه وعلقت الملابس على ماسورة رفيعة ثابتة في الجدار بالجانب، خلعت ثيابي لأفتح الصنبور فبدأت المياه تتدفق فوق رأسي وهنا اختلط دمع عيني الساخن بالماء البارد، فقط أردت أن أذرف ما بجوفي من مشاعر ممزوجة وباهتة دون أن يراني أحد.

انقضى وقت استحمامي وارتديت ملابسي لأولج منه واتجهت إلى الفراش، طالَ سهري تحت الغطاء وأنا أحدق في جهازي النقال أترقب أي نَبَأ يخصه.. وفاتَ اليوم من دون خبر أو حدث جديد، كنت بين كل غفوة وأخرى أصحو أتصل به فيجيبني انقطاع الأمل.

مرت الليلة على هذا المنوال حتى أشرقت شمس يوم جديد.. استيقظت بأفكار البارحة التي أصابتني بألم في الرأس فدلكت جبيني لأخذ الهاتف أشعله وما من إشعار حديث، فتحت جميع المواقع الخاصة بالتواصل الاجتماعي في هاتفي أرسل إليه الكثير من الرسائل، منها أسأل عن حاله، ومنها أخبره أنني أشتاق إليه، وأخرى أطالبه بِرد على رسائلي ولو بوجه تعبيري أطمئن فحسب.. لا أطمع في أكثر من ذلك.

قمت لأغتسل وأحضر الفطور، وبعد وقت قصير من الأحاديث مع أسرتي أتيت من المطبخ بفنجان قهوة لأجلس في الشرفة، كان الهواء لاسعًا والسماء مُلبدة بالغيوم الرمادية فكنت أتطلع إليها على أمل نسيان تشتتي وخوفي لكنها كانت بلون حال قلبي، ارتشفت من القهوة لأنظر إلى انعكاسي داخلها فتتحول بروية من وجهي إلى وجهه **وهمست حينئذ**:

- مثلكَ مثل القهوة، أصبحتَ إدمانًا لقلبي.

صعب.. صعب أن أنساه ولو مؤقتًا أو ألهو في التفكير بعيدًا عنه، يصعب على قلبي، إنه دائمًا موجود حتى وإن كان مفقودًا.. لن يغيب حاضرًا وأبدًا.

كانت عقارب الساعة تلف الدائرة الكاملة إلى أن يضرب البندول حتى اقترب وقت الغروب، وفي تلك الساعة كنت اجلس في الشرفة لأجله.. لأجل أن أراه ثانيةً.. لأجل أن يمر من تحت نافذتي كما كان يفعل، لكن انتظرت أملًا أجْوَف أعلم أنه لن يحدث ورغم ذلك تشبثت به.

شعرت بالبرودة تخترق ملبسي الصوفي لأستقيم بدافع العودة إلى الغرفة، فما الفائدة من جلوسي!.. لن يحدث ما أتمناه، ابتعدت عن المقعد وألقيت نظرة أخيرة على المسار قبل دخولي لأرى ما جعل من نبضاتي تعلو فرحًا..

رأيتُ أصدقاء **"عدي"** يمرون على جانب الطريق، كانوا الستة كافتهم على غير عادتهم لم يكونوا بتلك الهيئة التي أراهم بها هنا في الحيّ، بل جميعهم يرتدون بِذل داكنة وكأنهم مدعوّن على حفلة أو.. جنازة!!

لا أدرك تمامًا وخصوصًا أنني لمحتهم قبل أن يختفوا عن مرمى بصري، كما أنه لم يكن ضمنهم.. أينَ أنتَ بحق السماء؟.. ولِمَ الانتظار! مثلما أنا أسرعت من الشرفة إلى باب المنزل وغادرت فورًا لعلي ألحق بهم.. ركضت بكل قوتي واختفوا مثله، صِرت أبحث بين خفايا الطرق عنهم ولكن الأرض انشقت وابتلعتهم، ضربت قدمي فوق الأرضية متذمرة:

- لا، ليس أنتم أيضًا.. لا تفعلوا مثله.

مِن مَنْ يمرون يرمقني بنظرات مستنكرة ولكن لم أهتم لهم بل ناديت باسمه وسط الناس، لم أكف عن المُناداة أثناء ركضي بين الزحام وما من استجابة.

عُدت محطمة يائسة وشعرت بالألم ينهش صدري الذي ضاقَ.. بكيت مرة أخرى على مرور ثاني يوم من غير أن تشرق له شمس أو أعرف له سبيل:

- أرجوك لا تفعل بي ذلك، أنا أضعف من بُعدكَ.. لن أتحملهُ.

خرجت الكلمات من بين شهقاتي الخفية، أتحدث وكأنه معي ويسمعني.. سأصيب بالجنون قريبًا إن استمر الوضع بهذا الغياب.

****

الفصل الخامس عشر

عُدت محطمة الأمل، الذبول أحاط ملامحي والحزن أصاب خافقي، يومان فقط واشتقت له كثيرًا، يومان فقط كفيلان بتطفئتي، يومان وحسب لم أطق بعدهُ.. أصبح اليومان ثمانِ أيام، انقبلت فيهم حياتي رأسًا على عقب وصارت عذابًا من فرط شوقي إليه، كما أن صحتي تدهورت وبشكل ملحوظ.. لا يغفل لي رمش ولا تفتح لي شهية، كنت أشبه بالأموات.. جسد بلا روح، اتصلت به عديدًا وعديدًا وعلى حاله منذ أول مرة هاتفته، مغلق.

سهوت عن النوم ونسيت طعم الأحلام فحسب أعيش مع الشوق الذي ينهر في صدري.. أعيش مع الليالي الطويلة وحيدة بغير أُنسته.. أعيش مع الخوف والقلق عليه وأخشى أن ينساني.. أعيش مع دمعي الذي طال.

لم يجد لي جديد.. من وقت فراقه والزمن توقف لحظتها والصباح أصبح شجي والمساء أضحى كئيب فأين أكون أنا! لا أعلم حتى ما الوقت الآن فكل ما فعلته هو ارتداء معطفي الصوفي فوق الفستان المنزلي وأطلعت على أسرتي وكانوا نائمين ففتحت باب المنزل وغادرت، لا أعلم أين وجهتي لكن الشوق أهلكني والانتظار أرهقني.

كان لفيح الريح بارد والسماء أشد حلكة أما عن الطريق فالقليل فحسب من يمر وجميع المتاجر مغلقة، وأدركت أنني في وقتٍ متأخر من الليل.. مشيت كثيرًا وكنت أكتف يداي ووجهي مطأطئ شاردة الذهن فيه حتى اصطدمت في متجر زجاجي -مغلق- لأرفع بصري وأتمعن النظر في انعكاسي داخله.. شعر يُرثى له، بشرة شاحبة وبشدة، جفنان يحيطهما الاحمرار والهالات الغامقة، وجسد هذيل.

أبقى مع قلبٍ منهك ومخادع، يوهمني بأنني حيّة وبأن كل شيء سيكون على ما يُرام وسوف نتجاوز هذه العتمة، وفي الحقيقة أنا أتدهور.. أنا أتلاشى، أتحول ببطء إلى شيءٍ مهجور لا أثر له، أسير بلا وجهة وأنتظر أشياء لن تحدث.. يواسيني وهو الأعلم بالحقيقة كلها، ألتلك الدرجة أنا عاشقة له..!!

لم أترك مكانًا مررنا فيه سويًا -ولو بمحض الصدفة- إلا وبحثت عنه.

أين أنت؟.. ماذا عساي أن أفعل بدونك؟.. أنتَ الأمان والاطمئنان فلِمَ تحرمني منهما ومنك!.. روح فؤادي، أين أنتَ!.. أرغب بالبكاء بين ذراعيك، وأن أشكو لك منك وعما فعله بي غيابك، أريد أن أعترف بهزيمتي أمام البُعد وإفراط شوقي لكَ.

•••

صباح اليوم التاسع.. كنت أستند على العارضة الخشبية للفراش وأصبر ذاتي وقلبي أنه بخير وما زال معي لم يبتعد عنّي فتمتزج الرؤية بذكريات وخيال لمواقف تجعلني أبتسم بحزن.. أمسكت هاتفي وفتحت المراسلات النصية أقرأ المحادثة مرة ومرتين وثلاث.. لأكثر من مرة لأجل تلك الكلمات التي لمست قلبي برقة، وأسمع المقطع الصوتي مئات المرات لأجل الصوت المتغلغل بضحكة هزت كيان وجداني، أحشِد روحي به على قدر المستطاع فأفكر فيما حدث بيننا ولِمَ وصلنا لهذه المرحلة!

هو لم يشعر بحيرتي ومخافتي عليه طيلة الوقت، ولم يرَ شوق عيناي التي تنطق نيابةً عن لساني، لو كان فعلَ لكان رفق بحالي.. لا أريد أن أسأله عن سبب ابتعاده أو أين كان -صرفت نظر عن هذا- فحسب أود لو أشكو له عن حُرقة قلبي وأن يسمعني حين أسرد له عما أصابني به حبه، أفضفض عن سبب سهري لليالي متواصلة برفقة بكائي، أريد أن يعود شعور الطمأنينة مجددًا بقربه.

كان الأمان لقلبي.. وجهه الذي يحوي الكثير من أسارير النعيم وحُسنه كان الملاذ الأوحد والوحيد الذي ألجأ إليه في كل حزن وخوف، كانت كل أحزاني تتلاشى معه في عناق دافئ.. اشتقت إليكَ كثيرًا والكلمة تكوي بصدري.

أصبحت حياتي فارغة لكني مزدحمة، مزدحمة بك وبالذكريات وبأصغر التفاصيل وبالتفكير وبملحمة عقلي وقلبي المستمرة وأنا بينهما لا حول لي ولا قوة، أنا في زحام رغم صمتي وبداخلي ضجيج يبتلعني..

تنهدت نفسًا متعب لأحتضن الوسادة وأنزلق متسطحة الفراش، عزلت نفسي إلى حد التوحد لكي أحاط بكَ أنتَ فقط ولو بداخل ذاكرتي، وعيني ثبتت في اللا شيء ليتسلل الخيال وسطًا ممسكًا بيدي ويخرجني من منتصف هذه المعركة العسيرة ويجمعني بك في لقاء ودود من فرط جمال حُبنا بكيت.. أجهشت بالبكاء مانعة ظهور صوت نحيبي في الوسادة، وأثناء غرقي في حزني ودموعي تعكرت معدتي لأنهض سريعًا وانتشل السلة الصغيرة أفرغ ما بجوفي داخلها.. وكالعادة مؤخرًا تقيؤ مختلط بالدماء، اعتدت على هذا في هذه الأيام.

اعتدلت وتنفست الصعداء لأفتح صورته التي التقطها له سابقًا وبدأت أتذكر أحداث هذا اليوم وأحدق به فدمعت عيني وخيل لي أنه معي، وعاتبته باكية:

- هل هُنتُ عليك هذه المرة بأن تنساني وتهجرني! ألا تفتقدني كما أفتقدك!.. ألا تتعذب في البُعد مثلي أم أنا فقط من أحبت بصدق!.. ألم تشتاق لأيامنا الخوالي ولقائنا!.. أخبرتني أنكَ لست أحمق لتهدر فرصة لقائي و رؤية وجهي صباحًا، وأنظر أنت ماذا فعلت!..

لا تكابر في الغياب و عُد إليَّ مرة أخرى.. أنا لا أريد منك ابتعادًا، أنا أريد منكَ قربًا كقرب قلبي من روحي.

•••

سكن الليل وتزينت النجوم حول بدرها المشع والنسمات خفيفة كخفة أوراق الشجر، البيوت انطفأت إنارتها والطرق خاوية، أجواء هادئة وساكنة أراقبهم من خلف النافذة الزجاجية، أنا أيضًا هادئة.. كما أنَّ المنزل من حولي هادئ، إضاءة خافتة وتلفاز مشعل صوته لا يكاد يسمع ولا غيري في المكان، بالتأكيد الجميع نائمين إلا الساهرة شوقًا وحبًّا وحيرة.

اهتز هاتفي النقال لأشعر به، فأدرت رأسي من النافذة نحوه بجواري على الأريكة، كان يرّن باسم عزيزه.. أصبح الجسد ليس ساكنًا كما كان وتدفقت الدماء في العروق ونبضت فرحًا فأحيّا لونها خضارًا وزرعًا، أما عن القلب فدقت طبوله تقيم احتفالًا وعينيّ تراقصت على إيقاعها سعادة.. كانت حركتي بطيئة بشدة خلال سحبي للهاتف فضغطت على الزر لأرد عليه..:

"مرحبًا".

سمعته.. سمعت صوته الذي اشتقت إليه بحجم السماوات والأرض و أود لو أحتضنه، فرقت شفتاي لأجيبه لكن صوتي مبحوح ولا يلفظ حرفًا كأنه يأبى الخروج، صرت أتأتأ واتلعثم ليطلَع صوتي وأبادله الرد فحسب دون أي مقدمات شعرت أنني بكماء..

دمعت لعدم قدرتي على النطق ومحادثته فبكيت أكثر حتى ألقيت بالهاتف أرضًا ليتأرجح تحت الأثاث، وأصبحت أصرخ كالخرقاء التي أصاب عقلها صعقة كهربية؛ شهقة عالية جرحت صدري وهي تغادر فاهي والعرق تصبب أعلى جبيني، تنفسي كان مرتفعًا وسريع فاستقمت من منامي واضعة كفي جهة قلبي المتسارع أسترد أنفاسي من ذلك المنام.. خرجت إلى المطبخ وأخذت قارورة ماء أسكب منها في القدح الزجاجي ورويت حلقي متجرعة الكمية التي أحتاجها، فعُدت حيث غرفتي محتضنة القارورة وباليد الأخرى أمسكت الكأس ووقفت بجانب المكتب لأضع القارورة عليه وفي تلك اللحظة أنارَ هاتفي بإشعار وانطفأ.

توترت..! أجل، خوفًا من صدق رؤيتي بما حلمت، فتركت الكأس جانبًا بروية وأخذت الهاتف أضغط على زر الإشغال وأرى محتوى الرسالة من الخارج..

'بسمة روحي.. الرقم الذي حاولت الاتصال به مُتاح الآن'.

•••

تطلعت إلى تلك الكلمات التي جعلت من نبضات القلب تهتز ولم يفارقها البصر، تعطل عقلي عن التدبر والتفكير وتعالت دقات صدري المحترق ليصدح صداها في طنين أذنيّ يضرب بكل ما أوتي من قوة.. فقدت الوصول إلى حل أو تحليل محتوى الرسالة -الذي لا يحتاج إلى تحليل- فحسب بدأت الأسئلة تتدفق إلى مخي تدريجيًّا حتى انهارت على عقلي المرهق.

لِمَ كان مغلقًا من الأساس؟ ولماذا فُتحَ الآن؟.. هل شاهد اتصالاتي العديدة به والكم الهائل من الرسائل؟!.. أسوف يحدثني ويخبرني أنه اشتاقَ إليَّ كما أشتاقُ إليه؟ متى سأسمع صوته؟.. لِمَ من البداية ابتعد و وضعني في مأزق الحيرة بأسئلة ليس لها إجابة لدي.. سواه!!

هرولت جهة الخزانة واصطحبت أول معطف وقعت عيني عليه لأرتديه سريعًا واخذت الهاتف معي، فخرجت من الغرفة على أطراف أصابع قدمي كي لا يُسمع صوت خطواتي وراقبت الوضع في البيت حتى تأكدت أن كافتهم في سبات، فتحت درج الخزانة الصغيرة لألتقط المفتاح وأغادر بهدوء.. كل ما طاف فِكري هو أن أبحث عنه فظننت إنه من الممكن أن يكون تحت منزلي، كان بإمكاني أن أطل من النافذة وانتظر قدومه بدلًا من الخروج بعد منتصف الليل.. ولكنه قلبي المُشتاق له جردني من عقلي.

صُعقت حين وطئت قدمي خارج البناية فالطريق معتم للغاية باستثناء عامود الإنارة المتواجد في آخر الرواق، شددتُ المعطف حولي أكثر وأشعلت كشاف هاتفي مبصرة على الخطوات التي أخطوها فانتفض بدني واهتز الهاتف من يدي حينما تصادم ضوء البرق بالأرصفة وضجَ صوت الرعد في الأنحاء، لأتمتم بخوف:

- يا إلهي! أيجب عليّ العودة!!

لا بأس سأكمل الطريق ريثما ألتقي بخليل فؤادي، وعاندت رهبتي وتابعت السير لتبدأ رؤيتي بالتشوش عندما أحسست برذاذ الغيث، واشتد المطر من فوقي وأرعبني عجيج الرعد وضوضاء البرق بالإضافة إلى خلو الطريق حتى من الحيوانات الأليفة.

بلهاء.. ركضت خلف شعور كاذب، شعور تمنى قلبي أن يتحقق فوهمني بحدوثه وطاوعته دون مشاورة عقلي الذي شرع في توبيخي، أنا محطمة.. لقد أوقد داخل قلبي نار الشوق لتسحبني في جوفها بغير رحمة.. تبعثر قلبي إلى أشلاء رمادية كالورق المحروق خلال غيابه، بترت روحي وأصبحت بلا حياة، وذبلت عينيّ من ذرف دموعها المشتاقة.

لم أعي على حالي إلا وأنا ساقطة أرضًا أجثو وأبكي منافسة هطول المطر ومقلتيّ التي تتلألأ انكسارًا أكثر عوجًا من البرق، وعلو نحيبي المُسابق لنحيب الرعد.

****

الفصل السادس عشر

(لا تهملني.. فيروز)

رقدت أبكي بصمتٍ ومع كل دمعة يهتز كتفيّ، خبئت وجهي بين يدي حينما ارتفع صوت إنتحابي لأطأطئ رأسي بأسى، ضاقَ صدري من شدة حزني فأزلت يدي عن وجهي ورفعته للسماء الغاضبة والتي كانت تشاركني مشاعري بحزنها وضجيجها مثلي، كنت أنظر لها وبين كل ثانية وأخرى أرمش من هطول المطر فأغمضت عيني لأستعيد رشدي لكنها فاضت دمعًا ولم أستطع منع نفسي من البكاء أو الشعور بالاغتِمَام، نار الشوق تلتهمني.. ضربت فخذي بقبضتي حسرةً أثناء جلوسي لأصرخ قاصدة إياه بالكلام

خلال نظري للسماء-:

- غبار الحنين استعمر روحي، ويوم عن يوم يتفاقم وأنا قليلة الحيلة في الحكم على قلبي.. ألا تمِل من الهجر! ألا تريد أن تحرره بلقاء!

لِمَ أنا من بادرت في الوقوع أولًا وأحببته!.. لِمَ في الغياب أنا من تعاني وحسب!.. لِمَ أنا من تشتاق هنا! ألا يفتقدني!.. كفكفتُ دموعي المختلطة بماء المطر لأنهض وأحكم المعطف المبتل حولي، فكانت القشعريرة تلبسني عندما تحتدم الرياح الباردة ببدني الهزيل المبلل فأجذب المعطف أكثر.

وكما هو المسار فاضٍ إلا من أنسة صوت الرعد بالمطر وضوء البرق، مشيت ودموعي ترافقي الطريق، عقلي مُنشغل في سبب بعاده وما سببه لي أثر ذلك، وفي أمر هاتفه الذي فُتحَ ولم يتصل بي إلى الآن، قلبي ينقبض بوخزٍ أليم.. أنا مُتعَبة.

وصلت البناية التي أقيم بها وصعدت الدرج بلا طاقة أو قوة فحسب ببطء أتحسس السور الذي ساندني في الصعود، وكنت شاردة في ذكرياتنا معًا..

لِمَ لمْ ترحل مع رحيله وتتركني وشأني!، ولم تكُف عيني من ذرف دموعها.. ألا تتعب!، بصري منخفض نحو السلم والرؤية ضبابية وبين الدقيقة والثانية أستنشق ماء أنفي.

بلغت إلى طابق معيشتي لأتجه جهة باب المنزل وقبل أن أضع المفتاح داخله لمحت بطرف عيني ظِل لبشريًا يجلس عند السلم التابع للطابق العلوي، لن أنكر رجفتي وخوفي في ذلك الوقت فيما اعتقدته شبحًا أو من قطاع الطرق، ولكن رجفة قلبي الحقيقية لا تضاهي شيئًا أمام ما أراه بأم عيني الآن.

شعرت لحظتها كمن سكب فوقي دلوًا من الثلج شلَّ حركتي وأشعل لهيبًا داخلي وتركني في تناقض مشاعري، ازدادَ الأمر سوءًا لتعبس ملامحي وتنكمش فأعود للبكاء مجددًا وبعلو..

لا أعلم هل أهلوس به من إفاضة حنيني لرؤيته، أم هذا هو بلحمه وشحمه!

شعرت بالريبة حينما استقام من فوق الدرج لأمسح دموعي بخشونة وأكُف عن البكاء أترقبه وأتأكد من ماهيته، جسد بطول قامته غريقًا في الملابس السوداء من أخمص قدميه إلى عنقه باستثناء باقة الزهور البيضاء تلك التي يمسكها في يده اليسرى.

طال تحديقنا لبعضنا البعض كُلٍ منا يشبع حنينه من خلال النظرات، دمع فؤادي واهتز قبل أن تباشر عيني المنطفئة بذرف سائلها.. اغرورقت من فرط الشوق، تقدم وتيرة لكن بغير إرادة منّي ارتدت إلى الخلف مانعة متابعته في السير، استنكر رد فعلي برفع إحدى حاجبيه لأرى لمعة حزن في سوداويته فيتنهد مستاءً ويعيد خصلاته إلى الوراء.

أريد قربه، أريد عناقه، أريد أن أرتوي من حبه إلى الأبد، أريد أن يزرع الطمأنينة في روحي عبر لمساته، أريد أن يدفئ قلبي من نظراته.. لكني خائفة أن يتركني مجددًا.. سار خطوة متقربًا نحوي، سار ليخمد نار القلبين عند احتضانها لبعض متعانقان اللوعة واللهفة لتمحو الأرض البور وتنمو الأزهار بكافة ألوانها من صخب زقزقة قلبينا.

وجنتي التئمت بوجنته، جسدينا تلاحما لتصبح الروح واحدة بالتفاف أيدينا للعناق، أنفاسنا اللاهثة تحوم حولنا وكأنها كانت تسابق الزمان لتصل إلى هذه اللحظة، فؤاد كلينا يضرب ناحية الجزء المظلم والفارغ يُرسل موجات كهربائية أنارت العتمة عند عناقنا.

أجهشت في البكاء وبنحيب، لا أصدق أنه بين يدي.. تشبثت في سترته من صوب ظهره، لو في استطاعتي اعتقاله داخل قلبي حتى أضمن بقائه أبديًا.. مسح على شعري بحنية مطلقًا حرف الشين لتهدئتي وأنه هنا معي، ظل يردد بها إلى أن كففت عن البكاء وسكنتْ أنفاسي فابتعدت ببطء عن حضنه و وقفت أمامه نتبادل النظرات، ليبتسم لي تلك الابتسامة التي اشتقت لها بحجم السماوات، وما كان منّي إلا أن أرد على ابتسامته بصفعة قوية صدح صوتها في الأرجاء جاعلة من وجهه أن يُرَد إلى الجانب.

•••

ارتعشت أصابعي واهتزت أوصالي فتابعهما بريق عيني ورجفة حدقتيها كما أن الدم تجمد في عروقي، ليس رهبة منه ومن رد فعله بل لأنني شعرت بالصفعة رُدت في قلبي، رفع وجهه وما زال جانبه على مرمى بصري فضغط بفكه فوق عضلة خده، واستدار لي وتقابلت عينينا في مناقشة مكتظة بالعتاب، والاشتياق، والبغض، والحب، والحنين، والعديد من النظرات المختلفة.. لكن ذلك لن يدوم إلى الأزل حيث سأم لساني من مرآي مُقررًا الإفصاح عن ما ترسله، فلومته بهدوء يشبه ما قبل العاصفة:

- لم أكن أعلم أنه هان عليك أمري وأن تفارقني وقتما تشاء، أنت حتى لم تودعني! رحلت غير ملوحًا وتاركًا لي قلب محطم يتألم.. يُصعب عليّ أنكَ باعٍ للود ويعز عليّ أني هُنت، ويحز في نفسي.

فرج شفتيه ليتكلم فقاطعته قبل أن يبدأ مُتابعة حديثي:

- انغمست عيني في نهر دموعها على رحيلك ولم تطفو يومًا واحدًا أو ساعة على الأقل تُريحني فلا تتعب ولا تمل، لدرجة أنني رأيتكَ في قطرات دمعي المنهمر عليكَ.. أتصدق! سعدت بك وبلقائنا مرة أخرى وكان قلبي على وشك أن ينبت به جناحان ليرفرف من فرحته العارمة، أتعلم لماذا؟ لأنه رآكَ تضحك وعلى قيد الحياة بداخله تسكن فيه.

أكملت بحرقة وسمحت لدموعي بالخروج:

- أتعلم كم بحثت عنك؟

كنت أبحث عنك في الحاضرين صباحًا والسائرين مساءً، بحثت في المحطات، في الطرقات، في الجالسين في المقاهي، في المطلين من شرفتهم، والناظرين من نافذة الحافلات، في من يشبهوكَ، في من أدام النظر في السماء، ومن انكسر و وجهه إلى الأرض..

بحثتُ عنكَ في كل سبيل منير وكل زقاق دُجَّي، وفي كل دربٍ آمن ومطمئن ومنه أيضًا الروع والجزع، وكل ما هو هادئ وجميل.. لكني لا أجدك.

هدأت أنفاسي عندما رأيته يبكي بصمت في العتمة ظنًا منه أنني لن أراه ولمعة عينه تكشف أمره، فمسحت بأصابعي أثر الدموع على وجنتي متفوهة بشكوى:

- على الرغم من ذلك لا أجد الطريقة الملائمة لوصف ما أشعر به.. أخشى أن يهيأ لك شيئًا تافهًا وسخيفًا بينما هو يمزقني.

رمى باقة الورود على الأرض وخطى سريعًا يدفنني بين ذراعيه وأنا لا حول لي ولا قوة أمام دفئه، فأفرجت عن ضيق صدري وبكيت بينما هو أحكم الوثاق حولي و ردع ظهور الفراغ بيننا وكان يعتذر كثيرًا بنبرة طغى عليها الندم والأسى، فخرج صوتي مكتوم ومتقطع:

- لا تهملني.. لا تنساني، ما لي غيركَ.

يحتاج أي منَّا إلى إنسان طبيعي وبسيط غير متصنع أو متكلف، خفيف الظل وحلو المعاشرة، تعددت فيه المزايا، فطين ويفوز بالعقل، نديم بين البشر، وبه مرح يثير القلوب، يدرك لطف الضحكات، يُبصر بالعيوب ولا يعيب، يداوي كل جراح مهيب، ويؤنس الزمن العصيب، يمد يده حين ينقطع العون، ويساندك كتفًا إلى كتف، يطيل النظر حينما يغض الآخرون، ويبوح عندما يصمت الباقون.. تحتاج إلى من يعتز بك ويرى جناحيك كأنك ملاكًا لا من طين سَرْمَد، يشعر فيك بالاكتفاء والانتماء، وأن يكون لك دواءً لا داءً.

وأنا من أحتاجه من العالم يقبع بجانبي على السلم نفترش الدرج ويحيطنا غطاءً يضمنا لبعض "بعد أن دلفت غرفتي وأخرجته"، لم أقدر على رحيله وأن أتركه يغادر الآن بعد أن كنت أتمنى فقط قربه، ألحيتُ عليه بالبقاء معي الليلة وعند حلول الشروق يذهب قبل أن نُمسك.

وحده من يلون ورق خريفي الشاحب إلى ورد بألوان الربيع، وحده من ينير حلكة سمائي نجومًا وهو القمر، وحده من يرمم حزني بل ويبتره، وحده من يزرع في وجنتي زهورًا ارتوت من مدامعي، وحده من يحتوي خوفي بطمأنينته وهدوئه، وحده من يكون ظلي في وحدتي.

- كُفي عن التحديق في وجهي، عيناكِ تطالب بالراحة.

نقر أرنبة أنفي بسبابته وذراعه حولي وكان يحدثني بنبرة تشبه الهمس، فحركت رأسي على الجانبين رافضة ما يقوله وحدقتي ما زالت معلقة عليه لتلمع أثناء **قولي**:

- لا، لا يمكنني النوم.. أخشى أن أغفو وترحل مرة أخرى.

فقال متنهدًا:

- لا تخافي، أنا لن أذهب.

حركت رأسي مرة أخرى بالرفض بينما يداي تشبثت به أكثر **وقلت**:

- انظر أنا لم أسألك أين غبت أو لماذا ولا أريد أن أعرف، لكن عوض غيابك بمرافقتي.

دمعت عيني ليمسحها برفق فأكملت:

- خبئني داخل روحك وادفني بين ذراعيكَ، واجعلني أتسلل طيات ذاكرتك ولا تفارقني ثانيةً.
- أعدك.. أعدك أنني لن أتركك مجددًا.

فأكمل باسمًا:

- أنسيتِ أنني أرافقك كظلك!.. أنا معكِ هُنا.

لا، لم أنسى أنكَ ظلي الذي يرافقني في النور والذي تبخر في العتمة.. احتواني أكثر إليه لأحاوط بذراعي عنقه وأتسطح صدره وعلى هدى أنفاسه ونبضاته أغلِقت جفوني، ولأول مرة بعد طول فترة أنام براحة وسكينة، وأقمتُ في قلبكَ موطني حيثما وجدت الاستقرار والأمان لروحي.

●●●

الفصل السابع عشر

اهتديت ونعمت بالراحة لدرجة سماعي إلى صفيري الخفيف، رمشتْ عيناي لأبدأ في الاستيقاظ، ثوانٍ مرت في استيعاب ما حولي لأتذكر أمر الليلة الماضية، استقمت بجذعي واكتشفت أنني نائمة على فراشي.. آخر ما أتذكره هو نومي بالخارج على صدره.. هذا يفسر أنه أيقظني وأنا لا أتذكر.

تنهدت باسترخاء فأشعر بأن الروح ارتدت فيّ من جديد حيث عُدت أنتَ وأدركت أن بمقدوري أن ألمع وأنمو وأطمئن في ذات الآن، رفعت الغطاء ونهضت أبحث عن هاتفي فأنا أحتاج إلى سماع صوته والاطمئنان عليه.

فوجدت الهاتف على سطح المكتب، أخذته لأتحسس ورقة مستطيلة صغيرة صفراء ملتصقة في غلاف الهاتف، تعجبت قليلًا لأنزعها برقة حتى لا تنشق فإذا بها 'صباح الخير لعيناكِ التي زعزعت أعماق كياني'

هذا كثير على قلبي أن يتحمله.. كيف لك أن تبكيني لليالي متواصلة وتمحو في ليلة واحدة كافة الليالي الحزينة! أنا أحبّك، أحبك قسرًا عنّي وقسرًا عنك وقسرًا عن أي شيء يقف في طريق حبي لكَ.. إنها الحقيقة وأنا صادقة في مشاعري نحوكَ.

أمسكت الورقة وطبعت فوقها قبلات عديدة إلى أن احتضنتها ولففت في دائرة حولَ نفسي أرقص على قرع دقات قلبي وفرحته.. آمل ألا ينجو إحدانا من الآخر وأن نلتقي مجددًا حينما تضيعنا السبُل، فتحت الرسائل النصية وكتبت فيها تحية الصباح لأرسلها له، وعدة لحظات وكان يتصل بي.

توترت ولا أعلم من ماذا فحسب علت نبضات قلبي وشعرت بتدفق الدماء في جسدي، أعرف أنني على وشك البوح في أي لحظة ما بما أكِنهُ له من مشاعر فياضة.. أجبته وسمعت صوته كلحني المفضل:

- "كل هذا نوم همم!! انتظرتكِ كثيرًا"

أزال ربكتي حينما سمعت ضحكته وطريقته المزيفة في العتاب لأقهقه أنا الأخرى، **فقال**:

- "كيفَ حالك الآن؟".

أخرجت نفسًا ثم أجبته **قائلة**:

- "كنت مثل وتر الحياة المتقطع وأحيّاني عناقك على خلجان ألحاني".

تنهد هو الآخر وشعرت به يبتسم **مجيبًا**:

- "لا أقدر على مجاراتك في الكلام اللطيف الذي يُشبهك، لكن ما أعلمه أنكِ تهونينَ عليّ ثُقل اللحظات وتجعلينَ لي العالم أكثر نقاءً وبراءة"

ابتسمت عقب قوله مصارحة إياه بما في خاطري:

- "أتدري.. في تلك الأمسيات العسيرة التي مررت بها لو كانَ عليّ قتل أحدهم لرؤيتكَ لبَتُّ قاتلة من أجلكَ".
- "تنتابني رغبة مُلحة في احتضانك إلى أجل غير مسمى".

كيف لقلبي أن يهدأ! كيف أكف عن حبه يومًا عن الآخر!.. كيف أن أكون مألوفة وساكنة أمام كلماته المحبة! كيف أخفي الصخب الذي يحدث بداخلي!.. وقلت:

- "أود أن أراكَ الليلة".
- "بعد انتهاء موعد عملي سأمر عليكِ".
- "في انتظارك".

•••

حلَّ الليل وأنا لم أفعل شيئًا يذكر في يومي سوى الاهتمام ببشرتي الشاحبة والاستحمام، أود أن أعود كما كنت في السابق، لذا ارتديت فستانًا أبيضًا طويلًا وفوقه وشاح ترابي اللون عريض الحجم ورفعت شعري كالكعكة يتناثر منها بعض الخصلات، ثم وضعت القليل من الزينة في يدي و وجهي ورششت من عطري السكري.

كنت أتحرك ذهابًا وإيابًا في الشرفة أنتظره حتى رنَّ هاتفي الذي كان بين كفاي، **وأجبت**:

- "مرحبًا عدي، هل أنهيت عملك؟".
- "أجل، أنا عندك".
- وقفت على مشط أصابعي أدقق النظر في السائرين لأردف **قائلة**:
- "أنا في الشرفة، أين أنتَ؟".
- "أنا أمام باب منزلك".
- "ماذا تفعل بالخارج!!".

تفاجأت مما قاله، لماذا يقف بالخارج ونحن بالأساس نطالع بعضنا من الشارع والشرفة!.. **وقال**:

- "خلال ثلاثين ثانية إذا لم تخرجين لي سأدق على بابك وآتي بكِ أنا".

رمى أمره على مسامعي وأغلق المكالمة وأنا لم أستوعب بعد ما الذي يفعله، هل يمزح معي؟!

سمعت صوت جرس الباب يرّن لتتوسع حدقتاي وتخرج شهقة من فمي بينما ضربت صدري حذرًا، ركضت بسرعة كبيرة كي أفتح أنا الباب وأخبرت أمي أنها صديقتي وأننا سنتنزه لبعض الوقت وسوف أعود، أغلقت الباب فورًا خلفي لأقل بصوت منخفض ونبرة تميل للتوبيخ:

- عدي!! ما الذي فعلته أجنن....

لم أكمل قولي، ليقل:

- نعم، أنا جننت بكِ.

قالها مقتربًا منّي يرسم على ثغره ابتسامة عجيبة، فرجعت إلى الخلف بينما هو مستمر في تقدمه حتى أوقفته بيدي التي صدت حافة صدره، **فتساءلت مبتسمة:**

- ماذا بكَ؟
- حسنًا لأعلمك ما بي..

تلفظ بها ليحملني بين يديه كما تُحمل العروس فشهقت وأنا أتشبث في عنقه، ثم تفوهت بنبرة مرتفعة:

- ما الذي تفعله؟ انزلني حالًا.
- سنفضح بسببك.

صعد بي السلالم ركضًا ريثما وصلنا عند الباب الحديدي للسطح، **فقال**:

- اغمضي عينيكِ وسوف أمسك بيدك.

زفرت أنفاسي لأبتسم بوسع وأغمضت جفنيّ فمددت كفي الأيمن له، ومسك بيدي لأسمع صوت صرير الباب يُفتح فاستقبلني الهواء الطلق الذي اقشعر بدني وما زال يردد بأن أبقى مغمضة العينين، مشيت بروية مع خطواته ليترك يدي ويحاوط ظهري بخفة، فقال هامسًا:

- أفرجي عن محبوبتاي.

ارتعش جسدي لما يحدث له لأبدأ بفتح مرآي ببطء فإذا بالسطح حبلٍ من كرات الإنارة وعلى حواف السطح بسوره الكثير من الأقحوان، وفي الوسط فراش من لحاف نجلس عليه وفراش آخر يجمعنا معًا.

لمعت عيني من النَشْوة وعقد لساني عن وصف ما أشعر به فحسب دمعت من فيض سعادتي، اقترب نحوي بينما يبتسم بحُب ليعانق رأسي ويتحدث مربتًا على ظهري وشعري:

- آسف على غيابي، وآسف على ابتعادي دون علمك، آسف لتركك وحيدة، وآسف لانتظارك لي لليالي.. آسف أقحوانتي.

تحت السماء الصافية ونجومها المنيرة حدثني ليلتها عن الأماني والهوى ثم قال:

- أنتِ أمنيتي ومبتغاي الوحيد الذي لا حدود له.

إذا انكسر الكأس من قسوة القبضة وبلل الأرض ماءً، هل بمقدورك أن تلحم تناثر قطع الزجاج وفتاته وأن تعيده كأسًا صالحًا للشرب؟ أو أن تلملم قطرات الماء إلى موضعها الأصلي؟ فأجمعه إن استطعت!.. إنها الخيبة الأعمق من الغفران.. عجبًا أن يكون أحبَّ الناس إلينا وأقربهم أمكنهم قدرة على إقلاق قلوبنا وعبثًا بحياتنا!

على الرغم من محبتي له إلا أنه ترك خدشًا وأثرًا بقلبي لا يمحى، لم تَهُن عليّ نفسي في تلك الليالي والتي ببساطة هانت عليه، أُكثِر من قول أنني لا أريد أن أعرف أين كان، أو لِمَ غاب.. لكن قلبي يعارض بما ينطقه لساني، مهما بلغ الأمر من أفعال أو أقوال كالتلميحات يحتاج المرء أن يطمئن قلبه بتلك الكلمة وأن تتردد حروفها داخل طنين أذنه.. ولا يوجد شيء في هذا العالم يمكن أن يرهقك أكثر من أفكارك وأحيانًا يورطك بقلبك.

استقمت من مضجعي أزفر بضيق من زحمة أفكاري، كل ما أعلمه أنني منهكة كأني عشت مئة عام بمئة شخص ومئة حكاية، أتمنى أن أنعم بالراحة وأبديًّا، لا قلق من هذا وخوف من ذاك.. الأمان وحسب.

كان الوقت يقارب من الفجر فدخلت الشرفة الباردة ونظرت إلى السماء أبحث عن نجمتي وبالخطأ رسمت بها تفاصيل وجهك ليملأ فسيح السماء ولمعت النجوم بإطلالة بسمتكَ، وأملت رأسي جانبًا أتمعن في جمالك راجية أن يقف الّليل وألا يطلع الصبح، فذي ليلة بجميع الليالي.

سكن ضجيج قلبي وهدأت أفكاري عند تذكره والراحة سكنتني، وتذكرت ما حدث بيننا اليوم مبتسمة لتلك الذكريات الجميلة وفي انتظار صنع الأجمل.. لقد أخبرني في نهاية سُمرِنا وانتهاء ليلتنا أنَّ صباحًا سيحقق لي رغبتي وسوف نسافر معًا، فأغلقت الشرفة وعدت إلى فراشي في محاولة مع النوم، لقد ربط الود بين قلبي وقلبه فلا يبيحه إلا قربه.

•••

حين تعاهدنا أن نلتقي في السابعة صباحًا كنت أنا من أيقظته، سعادتي كبيرة جدًا لدرجة عدم قدرتي على النوم، ما تمنيته معه وعشته خيالًا سأحققه واقعًا ونمشي سويًا على أرض خضراء.. ارتديت فستاني وتجهزت سريعًا وعندما انتهيت اتصلت به مجددًا لأخبره أنني جاهزة، فقال أنه في طريقه إلى المحطة.

غادرت المنزل بمرح يهز كياني وكأنني طفلة، حتى وصلت إلى المكان المنشود والتقيت به وكنا نتبادل التحية ونتحدث في أمر موعدنا وسعادتي للرحلة، وبعد دقائق من انتظارنا للحافلة سأل:

- هل أنتِ راضية الآن إذن؟
- جدًا، لا أستطيع أن أصف لكَ مدى سعادتي حقًا.

حدقَ بي قليلًا باسمًا فأملت رأسي بمعنى ماذا، ليَقُل غزلًا:

- أشعر دائمًا أنَّ الشمس تشرق من زوايا فاهك حينما تضحكينَ.

توردت خجلًا لأضع بعض الخصل خلف أذني فحاولت أن ألجم ابتسامتي، لكنها اتسعت أكثر رغمًا عنّي فقرصَ خدي بلطف بينما يبتسم هو الآخر.. فقلتُ:

- إني أرى بكَ ما لا تراه بنفسك، وأحفظك ظهرًا عن قلب كالكتاب المفتوح أمامي، وأفهمك من عينيك بغير أن تتفوه.. أنت كالنجوم البراقة التي تلوح في سمائي ولا يخفت بريقها عنّي ولو للحظة، تتوهج وتلمَع، فتسعدني وتنير دربي الضائع.. جعلت لي عالم أحبه و زحمت وحدتهُ بك، وجعلت قلبي يشتهي الركض خلفك أينما كنت.. أنا ممتنة لك يا عدي ولن يوفيكَ شُكري مهما شكرت.

حينما أخبرته بقولي كان اعتدل في وقفته مثبتًا بصره داخل عينيّ التي تبادله هيامًا، ليتنهد أخيرًا ويجذبني بليّنٍ من مؤخرة رأسي ومُقبلًا جبيني بحنان.. جاءت الحافلة التي سوف تستقلنا إلى محطة القطار فصعدنا معًا.

وبعد فترة من الوقت بلغنا محطة القطار فحجز لنا تذكرتين وعندها فاتنا القطر فاضطررنا أن ننتظر القطار الآخر، شعرنا بالملل من طول انتظارنا وقررنا أن نلهو في الخفاء، و وقف كل منَّا على جانبي قضبان القطار وشبكت يدي اليمنى في يده اليسرى وامتد ذراعينا لنخطو في اتزان دون أن يقع إحدانا خارج القضبان، وحينئذ يخسر أحد منا نعيد الفعل مرة أخرى بضحك ومرح.. يصدح صوت صفير القطار لنركض فورًا قبل أن يأتي، حتى أقبل القطار الذي ننتظره.

****

الفصل الثامن عشر

مضت ثلاث ساعات على رحلتنا وقد كنت غفيت فيها على كتفه فأسند رأسه فوق رأسي وغفى هو الآخر.. استيقظت عندما تسلل صوته أذني **وهو يقول:**

- هيا استيقظي.

و وكز على ذراعي، ففتحت عيني لأعي أننا وصلنا..

نزلنا من القطار وغادرنا المحطة بالكامل، الهواء في تلك البلدة رطب والسماء صافية مصحوبة بسحاب أبيض متقطع في نواحيها مع أشعة الشمس الذهبية، والأشجار العالية منتشرة في كل بقعة زاهية اللون، وبيوت متفرقة المسافة بين كل بيت والبيت الآخر.

- ما رأيك أن نفطر أولًا ويمكننا التنزه بعدها!

وافقت بإماءة بسبب شرودي وإعجابي بتلك الطرق الساكنة عكس صخب المدينة، لم أنظر له أو لأمامي وحسب كنت التفت يمينًا ويسارًا عند كل تقاطع بين الدروب، فأعاد تركيزي وحواسي معه حينما وضع يده فوق كتفي ليخترق عطره رئتاي، وصرنا على هذا الحال إلى أن بلغنا مطعم ريفي صغير فأزال يده وتخطاني كي يفتح الباب.. شعرت وقتئذ بكتفي ينمو برعم وردًا صغيرًا يحمل عطره.

لوحَ لي من الداخل حتى ألحقه وأدخل فاستجبت له وجلسنا حول طاولة خشبية برائحة ملح البحار، ليأتي لنا الطعام خلال دقائق وكان مأكولات بحرية.. أثناء مضغي للطعام تركت الملعقة جانبًا وحدقت في ملامحه خفيةً فقد كنت أفتقده بشدة ولا أتخيل أن يمر يوم بدونه مرة أخرى.. لا يمكنني العيش في حياة بلاه، ويبدو أن الغرق في تفاصيله نعمة لا نقيض لها.

وضع الملعقة داخل الصحن ومسك القماشة البيضاء يمسح بها أثر الطعام من على فمه، ثم شبك أصابعه تحت ذقنه يبادلني التحديق فرمشت وأشحت بنظري عنه أعبث في طرف الملعقة، ليتحدث بعدها قائلًا:

- في كل لحظة أطيل النظر إليها أستشعر فرحتها كما لو أنَّ وجودي كافٍ لقنوعها.
- من هي؟
- عيناكِ.

هل أنطق بما يثقل قلبي من كلمة تهلك تفكيري؟ هل أبادر وأقطع المسافة بيننا بقولها! أنا أُحبّك.

حمحمت طاردة تلك المشاعر الجياشة وقلت:

- هيا بنا، أريد التنزه قبل أن يسرقنا الوقت.

استقمنا وغادرنا المكان لنذهب جهة البحر، صوت الأمواج وهي ترتطم في الصخور مع أصوات النوارس، والهواء العليل جعل منّي ساكنة ومغمضة العينين.. شعور الاسترخاء محاط كليًّا بي، لمسني من رسغي لأفتح جفنيّ وأستدر إليه مع همهمة خفيفة، وقال:

- تعالي لنجلس.

جلسنا فوق الرمال الناعمة بجانب بعضنا وكُنّا ساكنين ومستشعرين روعة الجو من حولنا، وبعد برهة شدَّ ساقيّ المثنية ليمددها، فتفاجأت من حركته ريثما وضع رأسه فوقهما قائلًا:

- دعيني أغفو لبعض الوقت.

همهمت وكُلّي اضطرابًا فاضحًا بارتعاش يدي ولكي أمحو الربكة بدأت أفرق أصابعي بين مفترق خصلاته أتلمسها حتى شعرت به ينام، وترددت كثيرًا قبل أن أنحني وأقبل شعره ثم جبهته فرمشَ حينها ليختل اتزان الكون من حولي وأبصر إليّ هذه النظرة المكتظة بالحبّ، فشعرت بالخجل دفق في وجنتيّ ومع ذلك لم أفصل نظراتنا عن بعض بها سحرٌ يجذبني إليها، **وردفت قائلة:**

- أتعلم.. بعد قليل ستكون ذكرى الشهرين لنا على مرافقتنا لبعض.

تبسم قائلًا:

- لنجعلها ذكرى لا تنسى.

قالها جاذبًا مؤخرة رأسي لأغمض عيني فورًا توترًا ويختلط عطرنا سويًّا حينما قبلَ تلك البقعة -خديّ- الساخنة توردًا والتي اشتعلت أكثر وأكثر، وكان لجفنيّ النصيب الأطول.

تشابكت أناملنا في عناق الكفوف، خطواتنا مهتدية ومتوازية فوق العشب الأخضر، الهواء يلاطفنا في محاولة محو حمرة خدينا آخذها في تجاه الريح، وابتسامة طفيفة رسمت على شفاهنا، شعرت بالكثير من المشاعر عندئذ كضحكة قلبي في تزايد دقاته ولهفة عيني حين اللقاء، كفرحة روحي الغامرة بجانبه وخوف فؤاد الأم عليه لأجل حمايته، كنار الشوق التي لا تخمد ورغبتي المُصِرة في قربه.. كُنا نسير صامتين بدون وجهة معينة إلى أن شممت رائحة ليست بغريبة عنّي، **فتكلمت**:

- إنها.. إنها. رائحة الفراولة.

تركت يده وركضت وسط الزرع في مزرعة الفراولة أمسك بهذه وأشم بهذه، فرأيت صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم أخذته لأجمع به ما أحتاجه من كمية قليلة، وخلال التقاطي للفراولة أبصرت جانبًا فإذا به متربعًا على الزرع ومرفقه فوق فخذه وجاعلًا من كفه مسنَد لذقنه، يحدق فيّ بعيون هائمة.
فخجلت لأبتسم بعفوية وأُخرِج قارورة الماء من حقيبتي أغسل بها واحدة من الفراولة، ثم هززتها حتى تجف ومددت يدي كي يأخذها منّي لكنه فتح فاهه، فزحفت إليه واضعة إياها داخل فمه..
وبعد تمضية ساعات النهار بصحبته أوشكت الشمس على مشارف الغروب، فحلكت السماء بتجمع الغيوم الرمادية منذرة بسقوط الغيث وأشتد هوج الريح، **فقال لي:**

- هيا نرحل قبل أن يزداد الطقس سوءًا.

وافقت على قوله لنستقل سيارة أجرة نقلتنا إلى موقف الحافلات عائدان في الحافلة التابعة لبقعتنا.. طوال الطريق كانت تمطر بغزارة وهذه أحب الأوقات إلى قلبي وأنسبها، سنغني، ونتمايل، سنرقص، سنقترن معًا من جديد عندما تُجمَع عينانا بلقاء حميم..
لم أدع الفرصة أكثر لخيالي المنطلق ورغبتي حينما وقفت الحافلة في محطة ما، قبضت كفه بين كفيّ فنظر لي مستنكرًا ومندهشًا لأقم وأسحبه خلفي مغادرين الحافلة، **فتحدث**:

- لـ... لحظة، ما الذي تفعلينه؟
- أنتَ الجنّي خاصتي وكانت أمنيتي أن نرقص معًا تحت المطر، فحققها لي إذًا.

ضحك لنركض سويًّا ونلهو تحت المطر الذي يتراقص علينا ثم بدلنا الوضع وكنا نرقص كالحمقى، غير هائبين أن يصيبنا المرض أو مكترثين لنظرات من يمُرّ.. وضعت كفيّ فوق منكبيه وتحاوط يداه خصري نتمايل في كل اتجاه حتى سكنا بعد برهة، حبل نظراتنا لم ينقطع ونبضاتي علت:

- لقد طال الأمر وبدأ يرهقني..

كان على وشك مقاطعتي، فقاطعته بوضع يدي على شفاه **مكملة**:

- دعنا نعِد من الداخل إلى ثلاثة تكونَ تهيأت فيهم ونعترف معًا.. حسنًا!

صمتَ للحظة ليومئ بعدها بالموافقة، فأبعدت يدي عنه وتنفسنا الصعداء سويًّا مغمضان العينيّ حتى فتحناها وكنت أعد بصمت..

واحد، اثنان، ثلاثة..

- أُحبّكَ
- أنا خاطب..

•••

- ك... كيف!!

كان الثقل في قلبي أكبر من أن أتحمله.. بعد أن كانت ملامحي مشرقة ببهجة الحب تجمد عقلي عن استيعاب ما سمعت.

- **"عدي"**.. أصغي إليّ، إذا كانت هذه مزحة لتعرف مدى عشقي لكَ.. فأنا أحببتك بألف قلب من أول لقاء، وها قد أخبرتك.. أنا أحبك.

اقتربت منه ومسكت بكفيه أرفض ما قاله وأخشى أن أصدقه، **فقلت باكية:**

- قد لا أكون أول فتاة في حياتك ولا رفيقة موعدك الأول.. أو حتى حبك الأول، لكني أريد أن أكون الأخيرة.

مسح دمعتي بإبهامه **قائلًا**:

- كنتِ اختيار قلبي الأول والأخير بعد أن ألتقيتكِ..

فحاوطَ وجهي بين كفيه **وتابع**:

- أريدك أن تعرفي أنه حينما ضحكتِ بوجهي لم أتردد أن أكون أسيرًا لها وغريقًا معكِ وفيكِ.. لكنه قدرنا أن نلتقي ونقف عند هذه اللحظة وسأظل حاملكِ بقلبي.

أبعدت يديه عن وجهي بعنف ورجعت خطوة إلى الخلف أقلب في يده و وجدتها فارغة، **فقلت**:

- أينَ هو؟ هل كنت تخلع خاتمكَ عندما نكون معًا! ..أنت تكذب عليّ صحيح! قل أجل وأنك أخطأت في قولك، أنت لست خاطبًا.

رفع كتفيه بأسف، **فابتعدت وأنا أنوح غير مصدقة:**

- كذب، كذب.. كل ما تقوله كذبًا.. كيف أن يكون أول ظهور لكَ بحياتي كذب! وأول ابتسامة كذب، ونظراتكَ!.. نظراتك التي كانت تُهيم بي حُبًّا وتتحدث أكثر من كلماتك، كذب!.. والمشاعر العذبة التي عشتها معك وكنتَ أنتَ سببها، كانت أيضًا من ضمن أكاذيبك، أم وهم منّي، أم براعة تمثيلك!.. أيهم؟.. أنا ظننتُكَ أملي ونوري في الحياة، كنت أنتظركَ دائمًا بشغفٍ وحب! لكنك لم تكن سوى قطار سريع دهس قلبي وأجنحتي.. حطمني، فكيف إذًا! كيف فعلت بي ذلك؟

طأطأت رأسي أبكي بمرارة من فجاعة الوجع والألم، كيف أمكنه فعل ذلك بي! عقلي سينفجر بأيّ لحظة وأشعر بقلبي يتمزق، فتساءلت:

- منذُ متى وأنت خاطب؟

تنهد مُجيبًا بحزن:

- خطبت في تلك الأيام السابقة، ع.. عندما ابتعدت فترة عنكِ. لا أصدق! كنت أموت في كل ثانية تمر من خوفي عليه ومن حنيني إليه، وهو مع غيري في حفل ارتباط رسمي!!.. وقتها شعرت بالصفعة التي هشمت قلبي، صفعة جعلته شحيح الثقة.. مسحت دموعي بخشونة واستنشقت ماء أنفي، وأردفت:
- قربتني إليكَ حتى ظننت أنكَ أنا! شخصٌ واحد.. لكني لست حقيرة، ومخادعة وكاذبة مثلك.

فأكملت ببكاء ونبرة تملؤها الحسرة:

- ليتنا ما التقينا.

أدرت له ظهري أتابع سيري وأجهش في البكاء.. لماذا؟ أنا لا أستحق منك هذا، هل رد الود والحب، الغدر والخيانة!!..

بكت عينيّ حتى أحمرت مُقل السماء، كان عليّ أن أتفهم حقيقة هذا الغياب، وحقيقة تغيره من ناحيتي وتغير تصرفاته، كان عليّ أن أستوعب أن لا حب يدوم ولا شيء يبقى على حاله، وأنَّ البحر لن يبقى راسخًا ولابد من هوجان الموجة العاتية، كان عليّ ألا أعلق كل أمانيّ على عاتقه وألا أعتبره ظلي الذي قدره أن يغيب سريعًا وأن يحطمني أسرع، كان عليّ ألا أبني أملًا سرابًا، أن أهشم الثواني التي فاتت وأنا أحاول إحصاء أيام عمري الفانية في ذلك الغياب، وأن أنحدر إلى الهاوية وأنا بكامل عقلي.

●●●

تلك الليلة المشؤومة... كانت من أطول الليالي وأصعبهم على قلبي، لا أحد يدرك مرارة الأمر وثقله الذي غير قابل للشرح، أن تركض بكامل قلبك وعقلك وشغفك وحبك نحو ما تحب وتعود منه خائب الأمل ومهشم القلب..

إنها لمأساة.

كنت فوق فراشي أجلس على طرفه بقدم مثنية أتربع عليها والأخرى عمودية على الأرضية محتضنة الوسادة، أحدق في الفراغ وأبكي بصمت دون شهقات أو نواح كما كانَ الحال قبل ساعات..

ما زلت لا أفهم الأمر، لم يبادلني حُبًّا! هل كنت وقتًا عابرًا بحياته؟ إذ كان ينوي بي غدرًا لِمَ من الأساس بدأنا سويًّا قصة وتركني وحدي لنهايتها!!.. تلكَ الأفعال الجميلة والكلمات المعسولة ألم تكن صادقة ونابعة من قلبه؟.. حب مُزيف!، كيف؟.. كيف مثلَ بإتقان هكذا وكان في آخر لحظة ما زال يتفوه بأحاديث تزيدني تعلقًا به ومستمرًا في ألاعيبه!.. كم كنت مغفلة!

لا أستطيع تحمل الكتمان أكثر، مشاعري المحطمة ترغب بالخروج..

شهقة عالية تمزِق روحي صرخت بها وأنا أكسر كل ما يراه مرماي، أصرخ وأجهش في البكاء، كافة ما أمامي أصبح أشلاء وفتات..

إلى أن قابلتني المرآة فتوقفت عن الغضب وصدري يعلو ويهبط يصارِع آلامه، حدقت في ذاتي الولهانة العاشقة به تيمُمًا لحكاية أنا فحسب من عشتها، بكفيّ ضربت انعكاسي ضربات متعددة وأنا أصرخ في حالة هَلَع -لم أشهد حالي عليها من قبل- حتى دمت يداي لألطخ به شعري الذي كنت أشدهُ وأخلعهُ بين أصابعي حسرةً وألم.

نواحي وصراخي الصاخب أيقظ أهلي، فرأيت أمي تفتح باب الغرفة عليّ ومرتعبة الملامح كما الحال مع أبي وأخوتي، اقتربوا جميعهم منّي كي يهدئوا من حالتي ويسألون ماذا حلَّ بي وما الذي حدث؟.. أصبّوا أسئلتهم القلقة فوق قلبي المتعب.

كيف أخبركم!.. كيف أخبركم أنَّ كل ما عشته من نعيم وحب أذاقتني الحياة أضعافه من مرارة وخداع في لحظة واحدة، وكم كنت مغفلة وعمياء عن حقيقة أن السعادة الهائلة لا تدوم.. كيف أخبركم!!

سقطت أرضًا على قدميّ أمام الخزانة الخشبية أضرب رأسي الغبية على عدم استيعابها لما قدمته لنا الحياة وما سلبته، أسرع أبي يجذبني بين ذراعيه ويهدئني، لكني ابتعدت على الفور واستقمت في محاولة الذهاب إلى المرحاض، تشوشت رؤيتي وصارت ضبابية -أكاد أعمى من شدة بكائي وحزني- وارتعشت ساقيّ لتنكمش بطني بألم وتبدأ بوخزتها المميتة.. سندت على الخزانة فلم تتحمل قدميّ الوقوف لأقع وأتقيأ دمًا طفيفًا، وما قابل أذنيّ كان صوت شهقاتهم المتفاجئة من الأمر، وبعد أن أفرغت الدماء على الأرض رفعت ملامحي الشاحبة إلى وجوههم المذعورة **قائلة**:

- لا تقلقوا، أنا بخ...

حلكت الرؤية وشعرت بثقل جفني كمن ضربني على رأسي لأغيب عن المحيط حولي وصرت محاطة في ظلمتي التي ملئت جوفي.

الفصل التاسع عشر

هسهسة وأطراف حديث متبادل التقطته أذنيّ لتتعكر تعابير وجهي وأبدأ في الإيقاظ، فتحت عينيّ وما قابلني هو سقف أبيض.. أشعر بالصداع يفتك رأسي فرفعت يدي لأدلك جبيني فإذا بمحلول معلق بها، توسعت حدقتيّ لأنهض بفزع في محاولة إبعاد المحلول عن ظهر كفي.

- يا إلهي! لِمَ هذا الشيء عالقًا..

قُطِعَ حديثي مع ذاتي بواسطة الطبيب عندما أتى تجاهي يرسم ابتسامة لطيفة قائلًا:

- وأخيرًا استيقظتِ.

أملت رأسي جانبًا فأنا لا أفهم ما مقصده من كلمة أخيرًا!، **فسألته مبتسمة بخفة:**

- نعم، ولكن هل منذ زمن وأنا نائمة؟

اقترب ليقف بمحاذاة الفراش و وضع يده فوق جبيني متحسسًا حرارتي:

- صحيح، كنتِ غائبة عن الوعي مذ يومين، حمدًا لله على سلامتك.

- مـ... ماذا !!!

خشيت على نفسي جدًا، وتفاجأت أكثر مما قاله أيضًا، كيف فعلتها تلك.. أن أكون في مرحلة غيبوبة ليومين!؟

- أهدأي، أهدأي.. أنتِ الآن أفضل واستعدت طاقتك.

قالها الطبيب مشيرًا إلى الممرضة أن تأتي وتحقني بما داخل أنبوب المحلول، فأسندتْ ظهري على الوسادة وأعادتني إلى وضعي مجددًا، **لأتساءل**:

- إنها أول مرة تحدث لي.. هل هو أمر خطير أيها الطبيب؟

جذب المقعد الجلدي البُني أمامي وجلس مشابكًا أصابعه معًا، **فقال**:

- كان من المفترض أثناء مجيئك وبعد فحصك أن تخضعي لإشاعة كاملة، لكننا لم نستطع فعل ذلك خلال فقدك للوعي حرصًا على سلامتك من أي خطورة.

همهمت وهززت رأسي ببطء شديد **متابعة**:

- ولماذا يتوجب عليّ الخضوع لإشاعة كاملة، لم أفهم.
- حسب ما سمعت من أسرتكِ أنكِ تقيأتِ دمًا.

ابتسمت في وجهه قائلة:

- أجل، وكثيرًا أيها الطبيب.. وصل الأمر لاعتيادي عليه.

انتفض من مجلسه وزمجر بي:

- وتضحكين!! ألا تعلمين بمدى خطورة ذلك؟

شعرت بالرهبة في دمي عندما ارتعشت، **وقلت**:

- أنا مستعدة لفحص الإشاعة والآن.

تنهد ليفرك جبهته **قائلًا**:

- لا نستطيع الآن، لقد وضعت لكِ مخدرًا يثقل من حركتك حتى تكونين ساكنة وبعد قليل سوف يغلبك النعاس.. حينما تصبحين أفضل وعلى ما يرام سنجري الأشعة على الفور.

قالها ليرمي أمره في نهاية كلامه بإصبعه السبابة في وجهي، ثم تحرك ومعه الممرضة كي يغادران الغرفة، **فناجيته**:

- أيها الطبيب إذا كنت ترى أن حالتي خطرة أرجوك لا تخبر عائلتي بالأمر، رجاءً.

حدق بي لثواني ثم التفت وغادر الحجرة دون أن يلقي بإجابة.

•••

صباح اليوم الموالي لليلة أمس، عندما استيقظت أجريت الإشاعة فأخبرني الطبيب أنه بإمكاني الآن مغادرة المستشفى، وحينما استعلمت عن ميعاد ظهور نتيجة الأشعة طلبت منّي الممرضة رقم هاتفي لتبلغني فورًا حينها، وافقت على ما قالته كما أخبرتني أن الطبيب طمئن عائلتي على صحتي وجعلهم يعودون إلى المنزل؛ لأنني أصبحت بخير.. غادرت وجسدي مفعم بحيوية ليست من طبيعته، جيد أتمنى أن أعهده على ذلك إلى الأبد.

عبرت الطريق وصعدت الحافلة ثم وضعت زوج السماعات في أذنيّ استمع لموسيقاي.. تذكرت وقتها عُدي، وتذكرت كل أيامي معه المشابهة لهذا الموقف وغير المشابهة، بالأساس أنا لم أنساه، كنت أحاول تشتيت ذاكرتي عنه وإثبات لذاتي أنني قوية.. لمعت عينيّ حزنًا لما حدث لنا مؤخرًا وانفصالي عنه فزفرت ماسحة تلك الدمعة الفارة.. كلما تذكرته ذكرت نفسي بأن لا أتذكره أو أذكره إلى أن أصبح محاطًا في طيات ذاكرتي من كل الجهات، فكيف أهرب منك!

بعد وقت بلغت المحطة العائدة إلى بقعة سكني، ونزلت منها أهندم ملابسي فرفعت وجهي لأمشي في طريقي، لكن عيني رأت ما لا تمنيت أن أراه، تلاقت بمن هربت من لقائه.. كان دائي و دوائي يقف بجانب فتاة عند المحطة واضعًا ذراعه حول كتفها وكانت تنفخ في يدها من برودة الجو والخاتم يلمع في إصبعها، لم يكن الأمر عاديًّا

كنت أشعر به في عمق روحي وأسمع بكاء قلبي، قتلتني الغيرة والنار أوقدت في صدري لتحرقهما وتحرق المدينة بأكملها، والغصَة بقلبي تكويني.. تمسكت بك ريثما شعرت بأني أمتلكك إلى يوم أن تُفنى الدنيا ولكني فقدتك مع أول غيمة، لأول مرة أشعر بأنك لا تخصني ولا يربط بيننا شيء، وأن السبيل إليك بات ضائعًا، وأننا لم نكن نعرف بعضنا من قبل، أصبحنا غرباء.

جمعت شتات عقلي وفتات قلبي لأخطو جانب كتفه برأسٍ شامخة وملامح جامدة ونظرت إلى كل الجهات إلا جهته.

•••

لو كان حجرًا لركلته، لو كان وشاحًا لنزعته، لو كان كلامًا لاسترسلته، لو كان شعورًا لدعسته، لكن الأمر يكمُن فيّ، يكمُن في قلبي الضعيف إذا تعلق أيّ شيء به، للآن ما زال ينبض باسمه متمنيًا قربه رغم ما ذاق منه من ألم وحسرة.

- لِمَ لا تفهمين! لِمَ إلى وقتنا هذا تكذبين ما أعترف لكِ به وأنتِ بعينيكِ رأيتِ حضنه أصبح لغيرك!

صرخت بعصبية إلى انعكاسي بالمرآة -الجديدة-، لِمَ لا تدرك أننا افترقنا وأن القصة لا تحتمل بطلين!

- لا تكابرين، مهما حاولت نسيانه ستظل الذكريات تلحقك أينما كنتِ.. أما انفعالك هذا ناتج من غيرة صدرك التي تكوي بقلبك.

لم يكن أحد يبادلني الحديث سوى نفسي، كنت أسأل وأجيب، أستفهم بحالة ضعف وبكاء لأرد بأخرى قوية وصريحة... تناقضي وتضارب الأفكار برأسي جعلني أخلق شخصية وهمية تُشبهني، أحادثها وتحادثني لتملأ فراغ وحدتي وتشاركني إياها.

انقضى أسبوع منذ آخر مرة صادفته.. امتنعت عن الخروج وفضّلت الحبس بالمنزل حتى لا أراه برفقتها، أجزمت ألا أحادث أحدًا من بعده وحُرِمَ عليّ سماع صوت غير صوته.. أصغيت إلى حقيقة ذاتي لأزفر بحنق والغصَة تؤذيني، فتحدثت بانكسار:

- حسنًا، إنني أتجاهل ما يدور بخاطري و أوهمني بالنسيان لكنه يؤلمني للغاية.

تربعتُ أرضًا مخبئة وجهي بين كفيّ أجهش في البكاء، ولو كان معي في مثل هذه الأوقات العصيبة لكنت سعيت بين ذراعيه حتى يطمئنني صوت أنفاسه ولا أعبأ لأي خوف أو همٍ بعدها، لكنه فضّل غيري عليّ.. انتشلني من نوبة بكائي صوتي الوهمي **قائلة**:

- ماذا لو عاد وطلب الغفران؟

- لهرولت نحوه بكل شغفي ودفنت قلبي الملهوف بين ثنايا روحه، لبكت عيني من حسرة ما رأته وعاتبته بلمعتها المنكسرة، لحكيت له عن خذلاني منه وكيف أنني هُنت عليه بتلك السهولة، لأخبرته عن كل ما فاته وما حدث لي خلال غيابه وما فعله بي، لجعلته نادمًا أشدَّ الندم على تخليه عني وأن يدرك خطأ ما ارتكبه بحقي، لأفرغت كل غضبي بوجهه دون أن ينطق، ثم ألملم اختلال مشاعري من بين ذراعيه وأرحل حيثما كان عالمي بعيدًا كل البعد عنه كما كان من قبل، ولن أغفر له أو أن أعفو عنه وأريح روحه، كيف أغفر لمن أحرق قلبي وأنا بين يديه ومن كثرة أذيته جعلني أشعر أنه لم يحبني يومًا وكان يعبث بحياتي كالكرة، جعلني في كل وقت أتساءل ألم أكن كافيةً!

لم أدرك أن نبرتي علت لتجعل من أخي يفتح باب الغرفة متطلعًا إلى حالي باستنكار وقلق.. الجميع بدأوا يعتقدون أنني أصبت بالجنون وأصبحوا يهابوني.. أعذرهم، فمن الممكن أنهم محقين فيما يظنوه، تساءل بهدوء بغير أن يقترب منّي:

- أنتِ بخير..؟

مسحت دموعي واستنشقت ماء أنفي مجيبة بإيماءة:

- لا تبالِ، كل شيء على ما يرام باستثناء قلبي.

•••

إنها الرابعة صباحًا، الجميع الآن يسبحون في نوم عميق، على عكسي فالأرق يجالسني سُمرتي اليوم، كل شيء يدعوني للانهيار والسقوط، أرى الذكريات تحلق في أرجاء الغرفة، والغُمة تتربع على عرش قلبي، السهر يصاحب حدقتيّ، والخذلان يتكاثف على كاهلي ولا أقدر على تحمله أكثر، فيربت اليأس على ظهري، ويتسلل الخوف روحي، لتخبرني الوحدة أنها معي ولن تتركني، باقية على العهد.

أمسكت الهاتف وفتحت الصور الخاصه به أمعن النظر في ملامحه التي أتوق إليها، فتارة أبتسم وتارةً أبكي ولا أتمكن من النسيان مهما حاولت..

كل صورة تحمل موقف فأتذكره كأنه حدث منذ برهة، أتذكر محادثاتنا الطويلة التي لم تكن تنتهي إلا بغفو إحدانا رغمًا عنه، مهاتفته لي بالساعات واهتمامه الواضح بي، مروره من تحت نافذتي ومبادلتي النظرات والبسمة الخفية.. لا زلت أتذكر كل شيء بيننا وأشتاق له وإلى هذه الأيام.

أفتقده وأفتقد لقائي به صباحًا في السابعة، أصبح الصباح كئيب بدونه، وصارت المحطة مظلمة من بعده، ويبدو أن العالم بأكمله فارغًا ومُوجِع.. أفتقده وحنيني يجلدني كل ليلة يكاد يضعني على حافة الضعف من أجل أن يشبِع اشتياق قلبًا ينزف لهفة، حتى النجوم

كرهت أن أتطلع إليها؛ لأنها تذكرني بكَ وتشبهك، تلمع وتتوهج وتعطيني أملًا بامتلاكها لكنها بعيدة، بعيدة جدًا عن متناول اليد فتكتفي برؤيتها فقط، أفتقدك ولا أقوى على البعد.

إنَّ رحيله هشم قلبي بعد إزهاره.. كيف يهدم أملي بالحياة بعد أن شيدهُ؟ وأن يظمأ روحي بالاشتياق بعد الارتواء؟ وأن يقطف أيامي بالهجر قبل الحصاد بالبقاء؟.. لقد هَبَّ بقلبي وَهَاج وعويل ومأتم.

تمنحني الأمان وتسلبه بالخوف، ترشدني إلى النور وتتركني في منتصف الديجور، تجعل أيامي أفضل ويعمها الاطمئنان برائحة عطرك الذي يفيض بهجة ونقاء يشيع الأرض نقاءً، ورحلت متخليًا عنّي، فتبقى من طيفك الذكريات التي تهون عليّ الوحشة والوحدة.. كيف لكل هذا أن يكون هينًا عليّ؟ كيف قسوت إلى هذه الدرجة؟ كيف لقلبك ألا يلين ويقوى؟

أين الرحمة!

أعرف أنه سوف يأتي اليوم الذي تقرأ فيه ما كتبته لأجلكَ، فأتمنى أن تلمسك كلماتي وتؤنب روحك حينما أرد لكَ المعروف وأرحل يومًا كما فعلت بي.

الفصل العشرون

مرت أيام طويلة كنت بها وحدي أنست وحدتي بمرآتي، وفراشي، وجدران غرفتي، حبست نفسي فيها بعيدًا عن العالم، أخشى الخروج إلى الطرق فألتقي به ومعها، وأخشى استنشاق الهواء في النافذة فأراه وأضعف على ضعفي مرة أخرى، لكنني اضطررت اليوم إلى الحرية والذهاب للمستشفى، فقد ظهرت الإشاعة منذ زمن وعليّ استلامها.

تجهزت وغادرت المنزل بخطوات سريعة أحاول أن أهرب من لقاء يبعثر فتات قلبي المتهشم، إلى أن ذهبت المستشفى، صعدت حيث طابق الاستلام وجرت الأمور المطلوبة ريثما أن أخذتها، ثم تحركت نحو غرفة الطبيب لأطرق الباب وأدخل، سألني عن حالي **وسألَ مازحًا:**

- ألا تأكلينَ!

لأنني ضعفت للغاية وتغيرت نفسيًّا قبل أن أتغير جسديًّا فمن يراني سيرهبني في الحال.. سلمته الإشاعة ليخرجها من ظرفها ويعدل من نظارته الطبية وبدأ يتمعن النظر داخلها، دقائق مرت وهو على حاله معكر الوجه وذاك وترني فتساءلت:

- ما الأمر يا طبيب؟

حمحم ليضع الإشاعة داخل غطائها مجددًا، **وقال**:

- لا تقلقي، كل شيء سليم وحسن أريد منك أن تقومين بإجراء بسيط وهو أن تمرين إلى الطابق السفلي حتى يسحبون منك دمًا كي نطمئن نهائيًا.

أعلم أنه يخفي شيئًا عنّي، **ملامحه تنطق بهذا:**

- ما الذي يثير شكوكك؟ دعني أطمئن أنا أيضًا.
- حسنًا لن أنكر الأمر، المنطقة الوسطى في جهازك الهضمي متضخمة.. ومن الممكن أن تكون المعدة ملتهبة أو أمر ما في الكبد؛ لذلك أحتاج إلى تحليل في أسرع ما يمكن.

أومأت له وأنا خائفة مما قاله وهذا بالتأكيد له علاقة بما تقيأت من قبل..

ماذا إن كنت مصابة بمرض خطير؟ هل سيكتب لي عمرًا لأراه فقط!

غادرت الغرفة بصمتٍ وضجيج يعلو في عقلي، حتى وصلت الجهة المرغوبة ليتم سحب جرعة دم منّي وبعد أن انتهيت **استفهمت**:

- متى سوف أستلم نتيجة العينة؟
- في المساء، أو غدًا في الصباح.. عادةً لا تتأخر في الظهور.

أخبرتني الممرضة مبتسمة أثناء مسحها بالقطنة لمكان السحب، فهمهمت لها لأشكرها وأرحل.

نزلت إلى حديقة المستشفى وجلست على مقعد أفكر فيما يخبئه لي الزمان وما سوف تكافئني به الحياة، مرَّ الوقت من أجل انتظاري لنتيجة التحليل لكني بدأت أشعر بالهبوط وانكماش معدتي، كتمت ألمي لأحكم معطفي جيدًا حول جسدي وأغادر المكان.

مررت بليالي عسيرة تستنزف من طاقتي وجسدي، وبكل ليلة أصبر نفسي بأن كل التعب هذا سيمر وأتخطى ما يصيبني، سأتخطاك وأتخطى مرضي الحقيقي وبك، أحفز ذاتي على هذه الكلمات لكنني أخادع نفسي في الحقيقة وأعلم أني كاذبة، فهنا تستلقي ذكراك جانبي وهواك يسكنني.

صباح اليوم التالي في منتصفه كنت ارتديت ملابسي من أجل الذهاب للمستشفى واستلام نتيجة التحليل، غادرت بيتي وتوجهت نحو المحطة فكانت تمطر مطرًا خفيفًا، جلست وضممت كفيّ معًا حتى تدفء في انتظار الحافلة.

كان من الناس من يركضون، ومنهم من اختبأ تحت ظِل، ومنهم من احتمى بالمظلة، وعلى الذِكر الأخير فكان هنالك ثنائي يركضان من رذاذ المطر تحت مظلة غامقة اللون تجمعهما ويضحكان بصوتٍ مَرح إلى أن أتا ليقعدان بجواري، ابتسمت للطافة مشاعرهما وأنا أشاهدهما.. فرفع المظلة عنهما وتجمدت ملامحنا معًا، كيف للقدر أن يجمعني به وهو بجانبي ومع غيري!!

تحمحم ليشيح ببصره بعيدًا عنّي وأزاح كفه من كفها فكانت نظراته تفضح ارتباكه وتوتره، أدرت رأسي للجهة المعاكسة أنا الأخرى أخفي دموع عينيّ وحرقة قلبي، أتجاهل وكلي يقظة له وأغض البصر ولست بعمياء، بجانبك وعدت غريبة عنك بعد أن كانت هذه الروح موطني.

مسحت عينيّ بالخفاء وتنفست الصعداء بهدوء بسبب عطره الذي شعرت به يحتضنني من طول الغياب، أفتقده بشدة ولا أستطيع الصمود أكثر خاصةً ونحن بالقرب من بعضنا، وأدركت الآن أن كل محاولاتي في نسيانك باءت بالفشل، وأنني لم ولن أحب غيرك فقد تركت لك قلبي منذ اللقاء الأول دون أن أتيقن للأمر.. أتمنى من كل قلبي أن أجد فرصة للحديث معك وأن يشعرك صمتي أنني أتوق للكلام، ألا ترغب ببدء قول مرحبًا! ألا تود أن نعيد قصتنا بنهاية أفضل من هذه!...

وإن بوحت لك بمشاعري أو كتمتها فكلاهما مؤذيان ولن يتغير شيء، قطعت حديث عيني لعيناه باستقامتي وصعودي الحافلة، تاركة نظراته خلفي تتبعني.

•••

عبرت الطريق الشاهد على عِبراتي والألم الذي ينهش في قلبي، أخبئ الشوق بجوفي وأظهر نقطة بعيني وفي قلبي بحار، إنني مرهقة متى سيعود إحدانا للآخر ويتنازل عن الفراق؟.. وحينئذ يعاد بذاكرتي لحظة انفصالي عنه، لِمَ تركني أرحل وحيدة؟ لِمَ لم يتمسك بي أو على الأقل يودعني بعناق يهون عليّ هذه الحلكة!، تركني أبتعد وأنا أطوي الطريق على ظهري وحدي وكان يشاهدني بقلة حيلة، ترهقني فكرة التخلي عنّي وكأنني كنت مجرد شيء عابر بحياته لم يؤثر به أو يتأثر بي، وأتعجب من حالي كلما زاد في قسوته كلما رجيت الدنو منه، وأن فكرة الابتعاد محالة مهما أسرف في القسوة.

كبحت دمعاتي حينما بلغت المستشفى فصعدت إلى الطابق الأول واستلمت ورقة التحليل ثم ذهبت بها عند الطبيب، دخلت وكما فعل المرة الماضية وقضى بعض الأحاديث.. أعطيته ورقة النتيجة ليقرؤها وبعدها باشر **بقوله**:

- منذ متى وأنتِ تتقيء دمًا؟
- لا أتذكر تمامًا ولكن فيما يقارب الشهران إلا القليل.

همهمَ بتفهم ثم **أكمل**:

- هل كان سببه شيء فاسد، مثل الطعام من الخارج، أو أكلات مالحة وحارة، أو مررت بحالة من الضغط والتوتر؟

صمت أتذكر وأفكر في إجابة حتى أجبته كاذبة:

- لا أظن ذلك، ماذا هناك؟
- بان في التحليل سبب التضخم، إنكِ مصابة بورم خبيث في المعدة ولم يكن منذ شهرين، بل ما يزيد عن السنة ومن الممكن أنه تطور وازداد بشكل ملحوظ خلال هذه الفترة، كما أنه أيضًا في حالة متأخرة.

كنت أشعر دائمًا بالخوف وأنني سأصيب بمرض لكن لم يخطر بفكري أن يكون سرطان.. أبدًا!، **فتساءلت**:

- بمعنى..؟
- بمعنى أنه كان عليكِ منذ أول لحظة لاحظتِ بها تغيير وكل ما حدث لك، أن تأتي للفحص وألا تهملي نفسك، وإلا لما كُنا وصلنا لمرحلة بعيدة عن الشفاء.

على نحو ما لم أعد أشعر بأن شيء يهم بعد الآن، وأن أستنزف من روحي في الحزن عليه، لذا تمتمت بغير اكتراث:

- يا أهلًا بالموت..

استنكر الطبيب رد فعلي مقطبًا حاجبيه، **ليقل**:

- من استقبالك للخبر و رؤية وجهك بهذه الحالة وهو يزداد سوءًا عن قبل، تأكدت مما يحوم بخاطري.. لذا أنصحك بزيارة طبيب نفسي أولًا وسوف يحسن من نفسكِ وهذا سيساعدنا على محاربة المرض، ثم تحتجزين هنا وسنفعل ما بأيدينا ونرجو من الله أن يوفقنا.

حزني لم يكن بالطريقة المعروفة بالنواح والصخب، لم أبكي ولم أتجه نحو كتف أحمل عليه آلامي ولا لأذن تسمعني، فحسب كنت أتوسل الحياة أن تدعني وشأني يكفيني ما أحويه من التعب لدهرٍ قادم.

أغمضت عيني وتنهدت لأفتحها وأقول:

- حتى وإن ذهبت لأخصائي نفسي وسمعني وهوّنَ عليّ أثقالي لأملك براح السماء وامتداد الأرض، لن يُطيب هذا فجعة صدري ولن يجبر بكسر قلبي.

غادرت ودموعي تتبعثر على الأرصفة من كم الخذلان الذي ينهمر فوق رأسي كالمطر، ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟ على ما تعاقبني الدنيا! أنا فقط أخلصت في الحب.. تسترسل روحي نزيفًا من الجرح في غيابك، وما زلت أنتظر اللقاء مرة أخرى متسائلة هل في الحياة بقية لأراك؟ لا يمكن أن يكون لقاؤنا نزوة وانتهت ولا مشاعرنا تبددت، أعلم أنك تفتقدني.. أنسيت أننا روح وظِلها! وأعلم أنني لا زلت عالقة في ذهنك وقلبك وإن خدعتني بالتعايش، فلا تسألني كيف علمت بغير أن تخبرني، تغنيني عيناك عن ألف حديث.. مؤلم أن تكون قلوبنا ما زالت مترابطة رغم الانفصال.

وصلت منزلي و وقفت أمام مرآتي أطالع نفسي لبعض اللحظات.. فهنا تكمن روحي وتظهر على سجيتها ولا أعتقد أنني سأظل صامدة طوال اليوم في إخفاء شعوري.

بعد مرور ليلة حافلة من الانهيار والبكاء على ما وصلت إليه سواء إرهاق جسدي أو نفسي، اقتنعت بكلام الطبيب فهو الوحيد القادر على علاجي ورجوع روحي الغائبة إليّ مرةً أخرى .. تعبت من تفكيري الزائد، ومن انشغالي ببعده قبلًا وانشغال عقلي به حاليًا، ومن حسرتي على خسارته رغم أنه هو من خسرني.. لم أكن كذلك قبل أن اعرفه، كانت حياتي سالمة وهادئة بدون شغف، ومع ذلك أنا لست نادمة على اقتحامه لفراغي، بل نادمة على تلك السنوات التي كانت قبل أعظم لقاء وصدفة، أي قبل أن يجمعني القدر بقدري العزيز، أنا فحسب تمنيته من الحياة فهل تسمح لي بلم شملنا قبل فوات الأوان، أم كُتب عليّ انتظاره في حياة أخرى!.. أرجوكِ انصفيني.

والمحزن في الأمر أنك لم تحاول من أجلي ولم ترأف على حالي ولو برسالة عن طريق الخطأ، لم تسع للحاق بي ولم أكن لأتراجع حينها لمحو المسافة بيننا، لكني أجبرت نفسي على وضع النقطة بدلًا من الفاصلة في هذه القصة وإعطاء الفرصة النهائية لك و لي، ولو تعلم كم عانيت من التفكير الشديد مقابل أن أسترد روحي معك.

مسكت هاتفي وأشعلته على اسم حبيب دربي، بأنامل مرتجفة أجريت الاتصال به لأزفر أنفاس مرتعشة حينما سمعت الرنين:

- "مرحبًا.. أقحوانتي".

رفعت رأسي وتنهدت لأغمض عيني الدامعة، فخارت قوتي ليحل الضعف مكانه الأساسي في قلبي:

- "هل يمكنني مقابلتك فوق السطح؟".

ردَّ برد أثقل من آلام قلبي وكأنه يقصد أن يثبت لي أنه ما زال عالقًا بي وما زلت أتشبث به، كان صوته مهزوزًا ويخرج أنفاسًا بكثرة، فهمس **قائلًا**:

- "أفتقدكِ.. وبشدة".

قبضت كفي فوق فخذي قاضمة شفتاي أجاهد من أجل إخفاء شهقاتي المشتاقة، فغلفت بيدي على السماعة لأحرر بكائي الخانق ورجفة زفيري، مسحت عيني بسرعة وحمحمت معيدة الهاتف إلى أذني قائلة بنبرة تملؤها الحدة:

- "ما قولكَ؟".
- "بالتأكيد، في الليل عندما أنهي عملي سوف أبلغك".

"على موعدنا".

أغلقت المكالمة بدموع عيني الغارقة في حزنها.. بكيت، وبكيت، وبكيت حتى سعلت بحرقة مستنزفة دمائي.

****

الفصل الواحد والعشرون

إنَّ فؤادي المحب متوق للقاء وهزم المسافات التي بُنيت بيننا، لم أتزين أو أظهر بأبهى طلة كسابق عهدي، ببساطة فتكني المرض والحزن ليرسمان من وجهي لوحة شاحبة وبشعة، وكم تمنيت ألا يراني بتلك الحالة حتى لا ينفر منّي.

حلَّ الليل أخيرًا بعد طول انتظار وجاءت الساعة المنشودة حيث أرسل رسالة أنه بالأعلى في انتظاري، أغلقت الرسالة و وقفت أمام المرآة أجري عملية الشهيق والزفير مرارًا وتكرارًا، أهدئ من اضطرابي وأخبر انعكاسي أن أتماسك وأكون قوية إلى أن أنتهي من حديثي الذي لم أرتبه بعد.

خطوت خارج المنزل بعد أن كذبت كذبة صغيرة على أهل بيتي وصعدت إلى الأعلى مُشرفًا بي الهواء العليل ليستقبلني ظهره الذي تمنيت لو أركض وأعبط به، تقدمت وحمحمت لأعلمه بوجودي، التف سالبًا منّي أنفاسي الهوجاء، وبنظرة أقام طبول الحرب بنبض خافقي جاعلًا حدقتيّ عاجزة عن إبعاد نظري عنه، و روحي تطالبني بالإطالة لأجل أن تروي حنينها العطش.

بلا سلام أو كلام أحاط ضلوعي الهشة بين ذراعيه وعطره تخلل أعماق روحي يجردني من عقلي، لِمَ مُصِر على هدم قوايَّ المزيفة!!.. شعرت أنني على حافة البكاء بسبب الغصة العالقة، فأبعدته بعنف متفوهة بضجر وغضب وكنت أرتجف حتى أسفل قدميّ:

- لا تقترب منّي بكل عشم وكأنني ذات الفتاة المتيمة بكَ.. اسمعني عدي، إني أحاول حقًا ألا أتذكركَ ولا أستسلم لضعفي عندما يوجد ما يذكرني بك وأقتلع طريقك من أمامي كلما رأيتك مع غيري بعد ما فعلته بي، أجاهد لأجعلك غريبًا كما كنت ولا يجمعني بك شيء و أن أستثنيك من كل ما هو جميل، وتعود إلى سابق عهدك لا يربط بيننا رباط،

وأحاول مكافحة أن أزيل ذِكرتكَ بهذا اليوم اللعين بعد أن تخليت عنّي إلى أبعد ما يمكن، حولت شغفي وأمنيتي في ذاك اليوم إلى حدث بشع ولو بإمكاني أن أستأصل هذا اليوم من جذور عمري لانتزعته، وكلما نمَت دموعي على وجنتي مِنكَ رجيتُ أن يصيبك ما أصابني.. وبعد أن أهدأ أخبر الله ألا يقبل بدعائي فلن أحتمل أن يمسك ضر ومكروه وأقف ساكنة مكتفة الأيدي، تمنيتُ لو أنكَ تركتني يوم نوبتي في أول لقاء كما تركتني يوم أن أخبرتك بحقيقة مشاعري نحوك، اقتحمتَ قلبي عابثًا به وخرجت كأنك لم ترتكب شيئًا، أتعلم! حتى صورك بهاتفي جاهدت من أجل أن أحذفها ولم أفعل في آخر لحظة، تمنيت ألا يرجف قلبي كلما رآك أمامي أو من

خلف الشاشة وأن يقسو كما قسى قلبك على قلبي، رغبت كثيرًا ألا تكون أول من يخطر ببالي حينما أفتح عيني وأستيقظ، وإن صادفت وهربت منك واقعًا تعود ماكثًا في منامي.. تخبرني أنه ما من مهرب، أخبرني ماذا أفعل! كل شيء يذكرني بك وتحاوطني من كل ركن، حتى ركن هدوئي في سماعي للأغاني دائمًا ما تتربع صورتك أمام عيني وكأنك المقصود بكل كلماتهم، لا أجد الطريقة المناسبة لنسيانك ولا أريد أن أجدها.

اغرورقت نجمتيه عقب قولي ليقل نادمًا:

- أنا آسف.

بلعت غصتي وحبست دموعي لأقول بعد أن هززت رأسي:

- كان عليك أن تحسم الأمر يومها، وتدرك قولك عقب قولي، كان عليك الابتعاد عني قبل أن تضعني في مأزق وحرج ووجع، كان عليك أن تدرك أن الاعتذار ليس كافيًا ليُنسيني وجعًا دامَ لأيامٍ ولياليٍ..

حاله مثل التائه يركز بصره نحو الأرضية التي بجانبي وعينيه تلمع بالدموع، فأكملت ما بجوفي باكية:

- لكنك لا تهون عليّ كما هُنتُ عليك ولا أقسو كما قسيت، وإن آلمتني تظل قلبي الذي لا يمكنني الاستغناء عنه.

فسألني دامعًا:

- لماذا؟.. رغم ما فعلته بك من بشاعة، لماذا ما زلت تغفرين لي خطايا وأنا أعرف أنني لا أستحق هذا اللطف منك؟

تنهدت مدلكة صدغي ثم أجبته بغيث عيني الهالكة:

- ببساطة لأنني أحبك، فكيف أقسو عليكَ وأنتَ باقٍ هنا في قلبي!

تابعت حديثي بيأسٍ:

- كل شيء يذكرني بكَ ولم أطاوع رغبتي بنسيانك.

اقترب متشبثًا بكفيّ وعيونه تأكد صدق ما يقوله:

- انظري إليّ، عندما التقيت بك أنا لم أبحث فيكِ عن الحُسن ومعايير الجمال ولا عن تمضية وقت مُسلي، أنا فقط أردت أن أكون معك حيثما تكون راحتي..

أكمل حديثه بينما كفيه صعدا حيث ذراعيّ:

- أنا لم أعرف معنى الحياة ولا الحب إلا حينما ألتقيتك، أيعقل أن أضيعك من بين يداي! أنني متيم بكِ.

دمعت عيني لأنظر إليه قائلة بخيبة وحسرة:

- لكنكَ ضيعتني.. يا للأسف!
- أقسم لكِ أنني أجبرت على تلك الخطبة، أنا لا أريدها ولا أحبها.

انفعلت في وجهه باكية:

- تجبر!! تجبر ماذا؟ هل أنتَ فتاة لتقل هذا! حتى الفتاة لها رأيها ولا تجبر.. فكيف أصدقك؟

طأطأ رأسه وقال بصوت منخفض يشوبه الانكسار:

- أقسم، أنا لا أكذب عليكِ يا عمري.. حقًا اضطررت لخطبتها، وهي مثلي لم يخلق بيننا حبًّا.

يا عمري أنتَ.. أصدقكَ ولو قُلت أنَّ إبليس تاب عن الإغواء.

- إذن أخبرني كيف أُجبرت؟ وأعتقد أن هذا حقي.

حدثته بهدوء مكتفة الذراعين ليومئ برأسه ساردًا الحقيقة:

- إنها شقيقة صديقي وعائلته على علاقة وطيدة بأسرتي، وفي إحدى الأيام كانت هنالك مناسبة تجمعنا كلنا وأباها أخبر أبي وسط الحديث أنه يراني شابًا خلوقًا ومناسبًا لابنته كما أنه يعرفني تمام المعرفة، وطبعًا لأنه عقيدًا بالجيش فخاف أبي أن يرفض عرضه كما يهابه الجميع، وأظنك علمتِ من هو.

هززت رأسي بهمهمة فهم عائلة تقطن معنا بالحيّ معروفين بأنهم يأخذون أغلب الأمور بوضع اليد، والكثير يتلاشونهم رهبة من رتبتهم ومكانتهم في المجتمع، فتنهد مكملًا بينما أنا كنت أستمع إليه جيدًا:

- عندما فتح أبي الحوار معي رفضت وغضبت جدًا، وحينما عَلِمَ أباها برفضي للموضوع أتى إليّ وهددني بزجي داخل وحشة السجن بأيّ تهمة من القضايا الكبرى كالمخدرات أو القتل، والأمر لن يستغرق منه إشعاله للسيجارة.. لم يكن مباشرًا في حديثه لكنني فهمت مغزى كلامه.

أدمعت عيناه ليمسح تلك الدمعة الهاربة وتابع:

- ولأننا أسرة لا تقارن بمستواهم الاجتماعي، ركعت أمي تحت قدميّ ترجونى بنحيب أن أقبل خطبة ابنته مدعيًّا حبها، حتى لا يضيع شبابي أمام عينيها.. لم يكُن أمامي حل آخر، أنا آسف.

أنهى حديثه يجهش بالبكاء مطأطئ، فأسرعت إليه محتضنة رأسه وأقبل فروته قبلات عديدة في محاولة مواساته، استنشقت ماء أنفي لأبعد رأسه عن صدري وتكون بين كفيّ **قائلة**:

- لا تبكِ ولا تحزن، إن الدموع لا تلائم بريق وجهك.

حرك رأسه يؤيد قولي ومسح آثار الدموع لأطالعه للحظات حتى **تفوهت**:

- لقد طلبت أن أراك لأسمح لك بفرصة أخيرة.. وها أنا أمد يدي، إن أردت أن تكون رفيق دربي تمسك بها جيدًا ولا تتركها مجددًا.

فقال:

- أحببتك منذ زمن وانتهى الأمر.

قالها وتشبثَ بيدي يجذبني نحوه ليعانقني ويمسح على رأسي بحنانه المعهود.. وبعد الكثير من الذبول، أزهرت روحي في قربه وآلفَ قلبي من يُلاطفه.

●●●

أفهم ذلك جيدًا كيف يتنازل المرء عن كبرياءه مقابل شخص يريده بشدة؛ لأن الحياة لا تمنح سوى فرصة واحدة فتغتنمها أو تهدرها، وأنا مررت بالمرحلتين غنمته وأهدرني وأحاول مرة أخرى الاحتفاظ به وبتلك الفرصة، لكن هل في العُمر بقية؟ هل تضمن وجودك في الحياة طويلًا! أو بعد ثانية واحدة؟ هل متسع الكثير من الوقت للتكابر والحفاظ على الجزء المتبقي من كرامتك؟

قبِلتُ أن أكون المرأة الثانية في حياته والأولى في قلبه، قبلتُ بما لا ترضاه من معشر النساء.. تنازلت من أجل حبي، تنازلت من أجل عذاب اشتياقي، تنازلت من أجل البقاء بجانبه لوقت أطول.. أعلم أنه ليس ملكي وملكًا لأخرى حقها تقل وتفعل به ما تشاء، وأعلم أنني أشعلت النار أكثر داخل صدري، لكني أحبه وما على القلبِ حكم.. وأتجاهل الجميع وأميل إليكَ.

في ذات الليلة الأقرب إلى قلبي.. كنت أتذكر اعترافه لي مرارًا وتكرارًا وكأنَّ تلك الذكرى محت كل الذكريات التي عانيت فيها، لم تكن موجودة أبدًا، فارتسمت البهجة وعادت الفرحة لروحي.. سهرنا مجتمعان في المكالمة نحكي عن عواطفنا وكيف وقع كل منَّا للآخر، لكن ما لاحظته مؤخرًا أنه ولا من مرة نطق باسمي بل يدللني بمسميات الجمال، وحين آخر تجمعنا المحادثات لمعاودة الاتصال بعدها مجددًا، أخبرني بفيلم لنشاهده سويًّا والمكالمة مستمرة، أعجبني اقتراحه وبالفعل شاهدنا الفيلم حتى مضى وقته وانتهى.

كنت أجلس أمام جهاز الكمبيوتر نتحادث مكالمة فيديو بها الكثير من الموضوعات المختلفة وكأن أفواهنا ببغاء، نقاطع بعضنا البعض لكل منا يكمل كلامه، وبالأخير كنا نتفوه عننا فتلفظت باسمة بعفوية:

- قبل أن نصارح بعضنا كنت أحب كثيرًا نظرتك نحوي والتي تؤكد بصمت تام أنك وقعت في حبي.

ضحك هو الآخر متوردًا الوجنتين تورد خفيف، فقال بإيماءة:

- أجل، أعترف بنظراتي التي كشفتني.

بادلته الابتسامة لأتنهد وأردف قائلة:

- صدقًا أنا سعيدة لعودتنا معًا مرة أخرى، ولا تعلم كيف كان يمر الوقت عليّ وأنت بعيد لا تواسيني لمسة يدك أو تطمئنني كلمتك..

فتابعت بنظرة شاردة:

- كان أمر الفراق مُحتمًا، وكان لابد أن نتألم لندرك قيمة بعضنا ومعرفة ما تركه إحدانا من فراغ في حياة الآخر.

عبست ملامحه بعد أن كان يبتسم، فقال زافرًا:

- ما بيدي حيلة!

فابتسمت سريعًا حتى لا يحزن متحدثة:

- تكفيني يدكَ.

قربت كفي ملامسة الشاشة، فلامس كفه كفي والفاصل بيننا تلك الصورة .

- تُرهقين قلبي بلطافتك المفرطة.

تبسمت بخجل وقلت:

- أشكر الله على ما أهداني به من نعمة، يا نعمتي.

لقد حلمت بك والتقيتك في الحُلم وسيرنا كما كنا نسير يدك بيدي وأغرقتني بسعادة لا تنتهي أبدًا، فاستيقظت والشوق في قلبي يتضاعف لرؤياك، فركت عيني من حلاوة المنام وأنا أبتسم، فارقت فراشي آخذة الهاتف أجري اتصالًا به وبعد رنين.. رنين.

- "صباح الخير يا حبيبي".

تفوهت بها وأنا أضع إصبعي الإبهام تحت سنتي الأمامية محرجة مما قلته، **فقال**:

- "صباح الخير يا عمري".

ابتسمت بخجل ووضعت بعض الخصل خلف أذني، **قائلة**:

- "كيف حالك؟".
- "بخير، أريد أن أنزل وأشتري أي شيء أفطر به بما أن الثلاجة فارغة".

همهمت وأخبرته:

- "حسنًا ما ستأتي به أجلب لي مثله، حتى نأكل مثل بعض".

ضحك بخفة مجيبًا:

- "حسنًا، سأتصل بك لتنزلي.. أم تريدين أن أصعد إليك!".

فقلت مستنكرة برفض:

- "لا، لا، تصعد ماذا؟ ستجلب المصائب فوق رأسي يا رجل!".
- "كخدمة توصيل وهكذا..".
- "لا، أشكركَ".

قهقه بعدما أنهى مزاحه وقال:

- "حسنًا، انتظري منّي اتصالًا".

"حسنًا".

أغلق المكالمة بقبلة طائرة وأنا أضحك على تصرفاته الطائشة التي اشتقت لها.. وزعت قبلات على الهاتف أنا أيضًا وأعانقه، **تنهدت مبتسمة:**

- ذاك المحبوب أصابني بالعته.. اعقلي يا فتاة.

رتبت خصلاتي لأذهب إلى دورة المياه وبعد دقائق معدودة خرجت برائحة منعشة أدندن بكلمات أغنية ما بلحنها، ارتديت ملابس أنيقة وتزينت بقليل من مستحضرات التجميل، فأنا لا أريد أن أكون قبيحة بنظره أو أن يشك في أمري بمرض أو أي شيء آخر، جففت شعري وقمت بتمشيطه.. وفي تلك الأثناء رنَّ هاتفي لأرد عليه وأخبرته أنني آتية إليه:

- وها هو العطر، رشة أخيرة ها.. حسنًا انتهيت.

أفرغت الزجاجة حولي لتنتشر في أنحاء الغرفة، مزاجي فوق الرائع والابتسامة مرتسمة على شفتاي ولا تسألني عن السبب.. أخبرتهم قبل مغادرتي أنني سأشتري طعامًا واعترضتني أمي وبعد المشاورات **وافقت قائلة:**

- كما يحلو لكِ.

نزلت لألتقي ببسمتي متصافحين في عناق دافئ لليدين:

- تبدين جميلة اليوم.
- ألم أكن جميلة من قبل؟

تذمرت في وجهه ليبتسم ويقترب منّي يكاد وجهه يلتصق في وجهي.. لا تفعل أرجوك قلبي سينفجر!

- أنتِ في كل وقت خاطفة للأنفاس، أخبريني كيف الصمود أمام كتلة الجمال هذه كلها.
- حسنًا ابتعد، نحن في الطريق ولا يصح ما تفعله.

تلعثمت بالبداية ريثما أبعدته بخفة وأنا أبتسم بارتباك من فرط خجلي، **فقال**:

- انظري إلى وجهك تصبغ بالحمرة كالطماطم.. هل تشعرين بالخجل؟
- يا غليظ..

هجمت عليه بالضربات واللكمات الرقيقة لتنمره عليّ وضحكاته العالية.. وبعد ثواني استعدت أنفاسي أهندم من مظهري، **مستفهمة**:

- أين وجبتي؟
- ها هي..

قالها وهو يمد لي الكيس الورقي، فمددت يدي كي أخذه لكنه أبعده خلف ظهره متأتئ.

- قبلة أولًا مقابل الطعام، خدمة أتعابي.

ابتسمت بجانبية من تفكيره الخبيث، فتقدمت منه و وقفت على أطراف مشط قدميّ وطبعت قبلة على جبينه.. رأيته ثابتًا كالصنم وتورد طفيف على وجنتيه، إذًا لما يطلب إذا كان يخجل هذا الأجدب الحلو..! ابتسمت بمكر خاطفة منه كيس الطعام لأركض عائدة للمنزل وأنا ألوح له.. وها هو حبك يُحيّني من جديد.

****

الفصل الأخير

عدت بمرح وسعادة كبيرة تملئ كياني، أشعر بأن الحياة ستبتسم لنا مرة أخرى وتعوضنا عما عشناه من بؤس وحزن، دلفت إلى المرحاض وغسلت وجهي من مستحضرات التجميل.. خرجت حيث غرفتي ومسكت المنشفة أجفف وجهي فصدح رنين هاتفي، لا أتذكر أين ألقيت بالمنشفة تحديدًا حيثما أسرعت إلى الهاتف بابتسامة واسعة:

- "أجل محبوبي".
- "أقحوانتي المدللة.. هل تناولتِ طعامك؟".
- "ليس بعد، سأتناوله الآن".

أجبته خلال جلوسي عند المكتب وأنا أفتح علب الطعام، **وتساءلت**:

- "هل تناولته أنتَ؟".
- "نعم، قبل أن أحدثك".

كنت على وشك قضم قطعة من اللفائف الحارة، فأرجعتها **وقلت**:

- "كيف استطعت أن تنتهي منه بتلك السرعة الفائقة!!.. لا تفهم كلامي بشكل خاطئ لكنه حقًا طعامًا كثيرًا وأنا منذ دقائق تركتك، فكيف وصلت البيت وأكلته؟".

فقال ضاحكًا:

- "لا تبررينَ أنا أفهمك قبل أن تنطقِ بحرف، ثم من قال أنني وصلت المنزل.. هل تفوهت بذلك؟ لا".

كنت أحدثه وأنا أتناول الطعام كمن مرَّ عليها عصور دون حبة قمح، وضعت الهاتف أمامي والمكبر فعال:

- "حسنًا، أين أنتَ؟ ولماذا لم تعد إلى المنزل؟".
- "أنا لا زلت في الطريق، كان في نيتي أن نأكل سويًا لكنك فررتِ".

ضحكنا ثم تابع قوله:

- "ففطرت وحدي لأنني في كل الأحوال سأمر على رفاقي".

فقلت والطعام يملأ فمي:

- "ولماذا؟".
- "اليوم إجازتي، ثم ابتلعي الطعام أولًا وتكلمي".

همهمت بغير اكتراث ليقف الطعام في رئتاي، وضربت صدري بقبضتي قويًّا ومرارًا وأنا أسعل، **فقال مقهقهًا**:

- "أشعر أنني أصبتك بالعين..".

وحينما رغبت في الرد عليه لمعت عيني وشعرت بانقباض معدتي والسخونة تسري فيها حتى مخي، تجمد بدني وارتجفت شديدًا، لا أعرف كيف كنت أحس بالبرودة والحرارة في ذات الآن!

- "مرحبًا!!.. أنتِ بخير؟".

عمَّ سطح المكتب وملابسي بتقيؤ مصحوب بدمائي الغامقة وكأنها تقارب السواد.. وأعتقد أنه سمعني؛ لأنه ظل يتحدث كثيرًا ولا أدري ماذا قال لكن أتذكر أن نبرته سكنها الخوف قبل أن أغيب عن الوعي.

•••

فتحت عيني واتضحت لي الرؤية بأنني كما كنت ملقاة على الأرض، تأوهت من الألم الذي ينهش فيّ، وبعد مدة استقمت لأمسك بهاتفي وكان يوجد به العديد من المكالمات الفائتة منه والرسائل منذ ساعة إلا دقائق، لم أستطع أن أكمل رؤية ما أرسله حيث انطفأ هاتفي لنفاد الشحن، زفرت بضيق لأترك الهاتف كما هو وأنظف ما سببته من فوضى هنا.

بعد انقضاء الوقت الذي احتاجته كنت قد اغتسلت وارتديت ملابس من أجل الخروج.. يجب عليّ الذهاب إلى المستشفى ومشاورة الطبيب بهذا الأمر، دحرجت نظري في كل الاتجاهات أثناء سيري خوفًا من أن نلتقي خاصَّة أنني لا أريده أن يعلم بشأن مرضي.. أخشى أن يخشاني ويتركني.. كما فعل من قبل.

وصلت مرادي بأمان لأتنهد براحة، فذهبت حيث قسم الاستعلام وأبلغتهم عن الطبيب ليخبروني عن مكانه، وبعد الشكر استدرت فلم تكمل لي خطوة وكل ما كنت أخشاه أتاني عندي، لكن الشعور كان أكبر من أن يفسر فحسب كان كالغصة عالقًا في حلقي، حتى شعرت أن أطرافي قد بترت، ولا يمكنني أن أفر.

•••

يطالعني باستنكار ومقطب الحاجبين، فتقدم خطوتين ليقبض على ذراعي ببعض من العنف، **ثم قال بنوع من الحدة:**

- لماذا لا تجيبين على اتصالاتي ومن ثم أغلقتِ الهاتف، لماذا؟ لا أعرف ما أقوله ، هل أكذب بأيّ شيء من أجل بقائك بجانبي؟ أم أعترف بالحقيقة وأنا على يقين بخسارتك؟ فحسب صمت وقلبي على وشك الصراخ، لقد تعبَ.
- وأيضًا ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

انعكس قلبي على وجهي، فقلت بلمعة العيون المنكسرة وبنبرة مهزومة ومهزوزة:

- أنا مُتعبة جدًا وأحمل أطنانًا من الآلام بقلبي، مللت من تحملهم وحدي.

فأكملت بغصة تجرحني:

- ورغم هذا كله أنا لم أطلب من أذن أن تسمعني أو قلب يحمل جزءًا عني.. أطيب جرحي بنفسي، لكني تعبت.

أملت رأسي جانبًا حينما أنهيت قولي فخذلتني دموعي لتشوش رؤيتي لسوداويته المنطفئة، جذبته من معطفه قاذفة ما يهلك رأسي على صدره أُفرغ شحنة البكاء المكبوتة.. بكيت وكأنني لم أبكي بحياتي من قبل، بكيت تحسبًا لو كان

هذا عناقنا الأخير.. تشبثت به بقوة أدفن وجهي، فخرج كلامي من بين شهقاتي المتقطعة:

- جريحة لدرجة أن التنهيدة تثقُل على قلبي.. ولا أستطيع أن أشرح فقط أشعر به.

كان يربت على ظهري ليرفع وجهي الباكي بين قبضتيه **قائلًا بحنان**:

- أنا هنا ومعكِ.. ألم أكن كافيًا لكِ من أجل أن تقاسميني حُزنكِ؟

مسحَ عبراتي بإبهامه متابعًا:

- من الآن يجب أن تشاركيني حزنك قبل سعادتك، وتعلميني بالتفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة.. ألم نصبح شخصًا واحدًا بعد! أنا مرافقكِ.. أنا ظلكِ، أليس كذلك؟

أومأت كابحة بكائي وحزني وأنا أبتسم له، **فتابع**:

- أخبريني إذًا، لماذا أتيتِ إلى هنا؟

تنهدت بحنق لأمسك بكفه:

- تعال معي لتعرف.

سرنا سويًا دون أن ينطق بعدها أي منا بحرف، ريثما وصلنا عند الجهة المرغوبة فتركت يده لأطرق الباب وقلبي ينتفض، دخلنا ليسألني الطبيب عن حالي **فقال**:

- تزدادينَ سوءًا في كل مرة عن التي سابقها.. لابد أن نسرع فيما أخبرتك به.
- ماذا بها أيها الطبيب؟

سأل بجدية وملامحه أخافتني أكثر.. هو ليس مرض عاديًا، أنا مرضي الحقيقي بعد معرفتك بالحقيقة وتركك لي.. حتمًا سيكون موتي بلا شك.

- سرد له الطبيب وضعي من البداية إلى تلك اللحظة، بينما أنا أحنيت رأسي وأفرد يداي معًا لهروب الدماء منهما وأستمع لقص الطبيب.. وعندما أنهى الطبيب سرده عمَّ الصمت يخيم بيننا، القلق يأكل عظامي فتساقطت دموعي على كفيّ لأزفر نفسًا مرتعشًا جامعة عيني بعينه التي لم أفهم نظراتها.

●●●

صمتَ لبرهة وكأنه لم يتوقع بعد ما سمعه، فتركنا الطبيب وحدنا مستأذنًا إلى الخارج، أما هو على حاله شاردًا في الفراغ وملامحه صلبة، مسحت دمعاتي وأبعدت الخصلات اللاصقة على وجنتي أثر البلل، ويليه استنشاق نفسًا قويًّا **قائلة**:

- إن أردت الفراق فأنا لا ألومك، لكن تذكر حديثي لكَ سابقًا بأن تتشبث بيدي فلا تفلتها الآن في أشد محنتي واحتياجي لك.. لكن إن أردت أن تفلتها فكما قلت لك أنا لن ألومكَ، لكن سأتذكر أن الطمأنينة كانت بحوزتك فبخلت عليّ بها ومددت يدك لي بالصمت، وأنا منحتك روحي وقلبي وكان هذا أقصى ما بإمكاني.

استقمت من مجلسي مكملة آخر ما بنَفسي قبل الرحيل:

- أشعر دائمًا أن الفراق كُتب علينا وقد يأتي يوم لا نكون فيه معًا، أو قد أتى لا أدري.. لكن أريدك أن تحبني أكثر وقتها..

نهض هو الآخر مقاطعًا طريقي وقال:

- حينما أخبرتني بالتشبث بكِ، أنا لم أخذلك تعاطفًا معكِ بل لأنني انتظرت فرصة السماح والرجوع.. أما عن انفصالي عنكِ، أنا لم أذكره حتى لو كان صمتي هيأ لك هذا.. أنا أود أن تظلي معي ونمضي معًا في هذه المحنة.

أمسكَ بكفي ماسحًا فوقه برقة متابعًا:

- لو بإمكاني تحويل من حولي نسخة منكِ لجعلت وجهك كل اتجاهاتي، فلا تظني أنني سأتركك أو أسمح لكِ بأن تهجريني ثانيةً.

بكيت وبقوة، فخرجت الحروف من فاهي مرتعشة:

- أنا مرتعبة.. مرتعبة من فكرة رحيلك عنّي، تخليت عن كبريائي وأنتَ لا تعلم كيف أن تتنازل المرأة عن كبريائها.. عندما علمت بمرضي كل ما فكرت به هو أن أكون بجانبك حتى ولو كانت هنالك امرأة أخرى تشغل حيزي في حياتك وثمنه قهرة قلبي..

فتابعت وأنا قابضة على كفيه:

- لا أريد سوى أن أكمل الباقي من العمر معك وجانبك حتى إن كانت مجرد ثوانٍ معدودة وفانية، فلا تتركني..

مضت دقائق بين عناقنا لبعض نخشى الفراق.. يخاف رحيلي وأنا بين يديه دون إذنٍ، وأنا أخاف رحيلي دون وداعٍ لائق.

- لكن.. ما الذي أتى بك أنتَ إلى هنا؟
- قلقت عندما حدثتك ولم تستجيبِ؛ لذا حينما كنت مع اصدقائي ورأيتك تركتهم وتتبعتك.

همهمت بتفهم.. وفي النهاية أقنعني لتلقي العلاج الإشعاعي بعد أن كنت رافضة وخائفة، تكفل هو بكل مستلزمات المستشفى وتم حجزي في الحال بغرفة مليئة بالأجهزة التي أجهلها، لكن رؤية وجهه من خلف الزجاج و وجوده طمأنني.. مرت ساعتان إضافيتان منذ دخولي الغرفة فرأيته يتحدث مع الطبيب في الخارج، وحينما انتهى فتح باب الحجرة بشوشًا بوجهي وأتى إليّ مقرفصًا بحوزة الفراش وممسكًا بيدي:

- لقد اتصلت من هاتفك بوالدتك قبل قليل وأخبرتها.. وهم في الطريق إلى هنا

أومأت له فقال:

- لِمَ تبكين؟

قالها مهمهمًا ليمسح تلك الدمعة.

- "هل نيأس؟
- كلا، تذكري أنها فترة عسيرة وستتجدد الحياة بعدها."

هززت رأسي مؤيدة قوله وازدادت دموعي لأتساءل:

- سنبقى معًا، أليس كذلك؟
- حتى يشيب الشيب رأسي.

ردَّ مُقبلًا يدي وشعرت بدموعه تتساقط على ظهر كفي..

وإن كانت هذه آخر أيامي في الأرض، أريدك أن تعلم أنني أحببتك بكل ما تمنيت أن أحيّا بجانبك..

أنهت كتابة يومها ووضعت القلم في تلك الصفحة لتغلق الدفتر وسافرت في نوم عميق بلا عودة.

•••

"لم يكُن لقائكَ في حسباني ولم أتخيل يومًا أن يكون وجودك أجمل ما حدث لي، كان كلانا تائهًا في أعباء الحياة ونمضي في طريقين متغايرين إلى أن انتهى بالتقائنا، حينها كان أول لقاء يجمعنا، صافحتني لتهديني السلام والسكينة اللذان استشعرتهما من باطن كفك، وكانت عيناك مأمني الوحيد، وكنت أنتَ انتصاري الأعظم في الدنيا، بسطتَ لي يداك وسرنا معًا، وكم كان حظي كبيرًا حين جمعتني الصدفة بكَ وصرت قدري الجميل، أود أن أحيّا معكَ ونُكمِل مسيرتنا في الحياة ببيتٍ صغيرٍ يحمل وجهك صباحًا ومساءً ويعانقني بعطرك باق ساعات اليوم.. أعلم أنكَ أحببتني كما أحببتكَ وسأبقى عالقة في رأسك وإن كنت بعيدة عنكَ، وستتذكرني دائمًا بتاريخ محدد بيننا و وقتٍ اعتدنا اللقاء به، ستتذكرني بمقطوعة سمعناها معًا أو فيلمًا شاهدناه سويًّا، ستتذكرني بكلمات تعودنا على قولها، ستذكرك بي الطرقات والأزهار، والزرع والبحار، والقهوة والنجوم، والشروق والغروب، ستتذكرني لأكثر من سبب وتذكرك الذكريات بي، فأنا أطوف حولك كالظل إلى الأبد."

فتحَ جُحر عينيه التي أصاب بياضها الحُمرة وتشكلت بالعروق الوردية، كان يتردد صوتها في أذنه منذ آخر رسالة تركتها له داخل الدفتر، قضم شفتيه ليمد يده ويمسح فوق اسمها المنقوش كأنه يربت عليها بحنان، **قائلًا بغصة:**

- تسرعتِ في الحكم على قصتنا ويئستِ، لكني كنت رفيق دربك..
سألتِ إن كنا سنكون سويًّا، فأجبتكِ حتى يشيب الشيب رأسي.

تنهد زافرًا آلام قلبه ومستعيدًا رباط جأشه:

- وها أنا أشاب الشيب رأسي.. أشاب دون أن تشاركيني تلك اللحظة.

سال دمعه ليحني رأسه متابعًا:

- تناديني لأبقى بجانبك، ولم أخلف بوعدي لأكون ظلكِ.. حتى عندما تخليتي عنّي ورحلتي مبكرًا، رافقتكِ كالظل لثلاثة وعشرين عامًا دون أن أكِل أو أمِل.

استنشق ماء أنفه ليمسح بكفه عينيه الدامية حزنًا:

- يومها كنت أحسب لنا المتبقي من الوقت لإتمام الشهر الثالث، وكنت أعِدُ لكِ مفاجأة كي نحتفل بذاك اليوم سويًّا.. أتعلمينَ أنني احتفلت به! أجل، احتفلت به.. احتفلت به هنا في المقابر معكِ، أتيت بالأقحوان وكوبين القهوة، وأطربتكِ بتلك الأغاني التي سمعناها معًا.. حتى لا تشعري بالوحدة.

جلس أمامها مطأطئ الرأس وتحدث بصوته المبحوح:

- أريد أن أخبركِ أنكِ لا زلتِ معي ولم تغيبي عنّي للحظة، أشعر بكِ في كل مكان ترافقني ذِكرتكِ.. وفي السابعة صباحًا عند المحطة أراكِ تجلسين بفستانك الذي أحببته وتبتسمين لي ملوحة، أشعر بروحك داخل السطور ورائحتكِ بين الحبر وكلماته، ما زلت معي هنا بداخلي وبكل تفاصيل أيامي..

تشتتُ من بعد رحيلك وشعرت بالضياع، وكانت الطرقات فارغة وغريبة بدونك، والليل طويل لا شمس في نهايته.. شعرت أنني غريب عن هذا العالم وضللت السبيل من بعدك، كنتِ أنتِ مرشدتي وهداي.. أصبحت وحيدًا بدونك، حتى رأيتكِ ترفرفينَ حولي أينما كنت.

أنهى حديثه ليطلق العنان لدموعه المكبوحة وكأنَّ قلبه من يبكي وليست غرابيته المنطفئة، ظل ساكنًا على حاله يضع رأسه الرمادية بين كفيه، ثم اعتدل رافعًا وجهه متابعًا بنبرة منخفضة:

- يا ليتكِ ما رددتِ الدَين لي.. يا ليتكِ ردتيه بالبقاء أبديًّا لا بالرحيل بهذا الشكل.

بكى وتعالت شهقاته رادفًا بنبرة تميل إلى العتاب:

- وها أنا أصبحت وحيدًا مرة أخرى، وغريب عن الناس، وأحبك.. كنتِ أعلميني برحيلك حتى أحتضنك إلى ميعاد رحيلك.. تمنيت لو أعانقك بشدة فلا نفترق عن بعضنا.

عقب قوله دخل في نوبة بكاء شديدة، أول مرة أراه في تلك الحالة من الضعف.. كنت على وشك الركض إليه واحتضانه، لكن استوقفني فعله حيث نهض وأحضر دفترًا أصفر متوسط الحجم ومهترئ.

فوضعه فوق القبر المتناثر عليه الزهور وقال:

- ما من داعٍ لتذكركِ الذكريات، سأظل أحملك بقلبي إلى أن نلتقي في حياة أكثر عدلًا.. لكن يعز عليّ أن ينتهي أثرك.

انحنى مُقبلًا اللوح المنقوش باسم ما، ثم رحل.. لم أدرك أنني طيلة الوقت كنت أراقبه وأنا أبكي، فتقدمت من ذلك القبر ساحبة الدفتر بين يدي أطالعه من الخارج لثوانٍ ثم أبصرت إلى الاسم "مانيسا زكريا".

هذا يُعني أن أبي أسماني على اسم عشيقته..

يُقال أن أصعب فراق هو فراق من تحب دون وداع أو أن تعرف ميعاد رحيله، فلا منه رجعة ولا به أمل ولا حياة بعدها، فتحتاج إلى إعادة تأهيل للتعايش مجددًا كما كنت في السابق، وتَعرف أن لا حياة تنتظر حزنك أو تقدم لك التعازي بل تستمر دون أن تقف عند لحظة معينة، وتطالبك اللحاق بها.. فقد الأحبة غُربة وكل منَّا يحمل عزيزًا في قلبه لم تصبح الحياة حياة بعده، لكن في النهاية جميعنا سنصبح قصصًا تحكيها القلوب.

تمت